كتب دائرة المعارف الإسلامية

(٢)

الأندلس

بقلم

ج. س. كولان

g. s. colan

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

ابراهيم خورشيد • د. عبد الحميد يونس • حسن عثمان

دار الكتاب اللبناني — دار الكتاب المصري

بيروت - لبنان   القاهرة ج م ع

دار الكتاب اللبناني

بيروت - لبنان

ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبنان)

تليفون ٢٥٧٤٧٠ ٢٣٧٥٣٧

TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

دار الكتاب المصري

القاهرة ج.م.ع

٣٢ شارع قصر النيل - ص.ب ١٥٦

ت ٧٤٢١٦٨/٧٥٤٣٠١ - برقيا (كتامصر)

TELEX No 2336 CAIRO
A.T.T 134 K.T.M.

الطبعة الاولى

١٩٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الأندلس اسم حبيب ما ذكره عربي أو مسلم إلا فاضت نفسه حسرات على ضياع ذلك الفردوس المفقود . أجل كان فردوساً أضاعه التحاسد والتباغض وتفرّق الكلمة وتقاتل الملوك والأمراء على متاع زائل ونعيم خلاّب انتهى بالبغضاء الى سراب ، ولو توحدت كلمتهم واجتمع شملهم لكان للاسلام شأو بعيد وشأن غير شأنه اليوم . ولعل ما يعزينا عن فقد الجنّة التي تعهدها المسلمون في رياض الاندلس وغياضه أن المجد الباذخ الذي أقاموه فيه ظل خالداً كما أنه أثّر في الحضارة الانسانية أثراً عظيماً لا ينكره منصف . فقد كان

الاندلس منارة للحضارة والعلوم والفنون والآداب ، وكان طلاّب العلم من جميع انحاء العالم يتقاطرون على جامعة قرطبة ينهلون من معينها الفياض ، وحسب الأندلس أنه أنجب من العظماء أعياناً في كل بابْ من أبواب المعرفة ، وأبدع في الفنون آيات وروائع لا تزال باقية تطاول الزمن .

ويطيب للجنة ترجمة دائرة المعارف أن تصدر الكتاب الثاني من هذه السلسلة عن الأندلس ، وقد كتبه أئمة من المستشرقين أمثال تسيبولد وليفي پرڤنسال وتوريس بالباس و ج . س . كولان .

ولد تسيبولد سنة ١٨٥٩ وتوفي ١٩٢١ ، وتخرجَ في جامعة توبنجن على سوسان ، وكان يتقن العربية والفارسية والسريانية . واشهر آثاره انه عاون جويدي في وضع فهرس كتاب الأغاني للأصفهاني ، كما صنف معجماً لاتينياً عربياً ، وفهرساً للمخطوطات العربية في مكتبة جامعة توبنجن . وله بحوث في الإدريسي ، والمفردات العربية ، وأسبانيا العربية ،

والكندي والبلاذري والطبري .

وولــد ليفي پروفنسال سنة ١٨٩٤ وتوفي سنة ١٩٥٦ ، وكــانت ولادته في الجزائر ، وتقلــب في مناصب كثيرة ، وأصبح متخصصاً في الشؤون الاسلامية وخاصة المغرب والجزائر . وفي سنة ١٩٢٨ انتدبته كليــة الآداب بالجزائر أستاذاً لتاريخ العرب والحضارة فقسم وقته بين الرباط والجزائر ، كما تولى في الوقت نفسه التدريس بالسوربون في معهد الدراسات الاسلاميــة وكــان موضوعه تاريخ العرب وكتاباتهم . وفي سنة ١٩٢٨ دعته جامعة القاهرة أستاذاً زائراً وعيّنته عضواً في اللجنة المكلفة بتحقيــق كتاب الـذخيرة لابن بسّام . وكلفته الحكـومة الفرنسيــة سنة ١٩٤٤ بمهام خطيرة بين لندن والقاهرة والقدس ودمشق . ثم عين أستاذاً للعربيـة والحضارة الاسلاميــة بجامعة باريس ووكيلاً لمعهد الدراسات السامية في هذه الجامعة .

ولـم يكتف ليفي بالتدريس بل تولى أيضاً منصب مدير المطبعة الفرنسية لدائرة المعارف الاسلاميـة حتى

سنة ١٩٣٩ ، وأصدر مجلـة Arabica للـدراسات العربية . وقد عدّ هذا المستشرق الكبير الحجة الأولى في المغرب في تاريخ الأندلس ، وأتم في دائرة المعارف الاسلامية ما بدأه سلفه تسيبولد .

ولليڤي بروڤنسال دراسات وبحوث تعزّ على الإحصاء معظمها في المغرب والأندلس ، وقد وضع فهرساً للمخطوطات العربية في الرباط ، والجزء الثالث من المخطوطات العربيةفي مكتبةالاسكوريال. ومن كتبه المشهورة : أخبار أوليـاء المغرب ، ومؤ رخو الشرفاء ، ومختارات من مؤ رخي العرب في المغرب ، وأهل المغرب وماضيها ، وغرناطة المسلمة ، وتحقيق كتاب صفة جزيـرة الأندلس لعبد المنعم الحميري ، وتاريخ أسبانيـا المسلمة ، وغير ذلك من الـكتب والبحوث الممتازة في كثير من الموضوعات الأندلسية .

أما توريس بالباس فقد ولـد بمدريـد سنة ١٨٨٨ وتوفي سنة ١٩٦٠ ، وتخرج في كلية الفن المعماري في جامعتها ، وأقيم مهندساً لقصر الحمراء في غرناطة ،

والمصطلحات المغربيـــة وأسماء الصنّاع والتجّار ، وعربية غرناطة في القرن الخامس عشر ، ونشر بمعاونة ليڤي بروڤنسال : حيـاة المغرب الفكريـة ، والبيـان المغرب لابن عذارى ، وله ايضاً معجم جيب أسباني عربي ألمـاني ، وتسميــة عربيسة غربيـة لشجرة الزيتون ، ومشروع معاهدة بين مغاربة قصبة الـرباط وملك أسبانيا سنة ١٦٣١ م .

ولا ننسى أن نذكر فنشكر المـرحوم الاستاذ العلامة محمد مسعود على خدماته التي لا تنسى للجنتنا ، فقد كان يسهر معنا الليالي في مراجعة ترجمة المواد الأندلسية والفلكية التي وردت في الدائرة والتعليق عليها ، رحمه الله رحمة واسعة على جليل خدماتـه للتحقيق والعلـم واللغة العربية التي كان من أشهر الغيورين عليهـا ، ومـا من أديب من أدبـاء الأربعينـات يمـكن أن ينسى المساجلات المثيرة التـي كانـت تدور بينـه وبـين شيخ العروبة أحمد زكي باشا .

وبعد فاننا إذ نصدر هذا الكتيـب النفيس عن

واستاذاً لتاريخ الفن المعماري في جامعة مدريد ، ثم مديراً لمتحف معهد بلنسبة ، وانتخب عضواً في مجمع التاريخ وفي معهد آسن بالأثيوس ، وكان بالباس الخبير الحجة في تاريخ الفن الأندلسي .

ومن أهم آثاره : المدن الإسلامية في أسبانيا ، كما كتب في سلسلة الفن الأسباني : الفن العربي في أسبانيا في عهد الموحدين ، ومملكة غرناطة ، والمغاربة . وله ايضاً : قصر الحمراء وجنة العريف ، ومسجد قرطبة وخرائب الزهراء ، والمدن الأسبانية الاسلامية ، وله ايضاً بحث في العمارة الأسبانية الاسلامية نشر في مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية .

وأما كولان فقد ولد سنة ١٨٩٣ وأقام في شمالي افريقية وانصرف الى دراسة هذه الربوع من حيث التاريخ والعادات واللغات وغير ذلك .

وله آثار كثيرة منها اللهجات العربية ،

الأندلس الحبيب نرجو أن يكون حافزاً لنشر مكتبة شاملة للكتب والدراسات والمخطوطات الأندلسية ، ونتطلع إلى ذلك اليوم الذي يتم فيه تحقيق هذا الأمل المنشود والرغبة الجليلة .

ابراهيم زكي خورشيد
رئيس تحرير النسخة العربية
من دائرة المعارف الإسلامية

الأنـــدلس

« الأنـدَلُس » : الاسـم الـعربـي لشبـه جـزيـرة إيبيريـا ، كان أول ظهوره عند العرب ، وأصلـه مشوب ببعض الغموض شأنه في ذلك شأن الاسمين القـديمين : إيبيريـا عنـد اليـونـان وأسبـانيا عـند الرومان . ويجدر بنا ألا نحفل كثيراً بالاشتقاق الذي ذهب إليـه العرب بإرجاع اللفظ إلى أسماء الأجداد الأول وقولهم إن البلاد سميت باسم أندلس بن طوبال ابن يافث . وقد تكون هناك صلة بين هذا الاسم وبين اسم القبيلة الجرمانيـة « الفندال » ، وفي هذه الحالـة

يفتــرض أنــه مشتــق من «فنداليشيا» Wandalicia ، وربما كانت صيغة ڤنداليشيا تطلـق على إقليــم بتيقا Baetica القديم الذي احتله الڤندال ما يقرب من عشرين سنة (٤١١ - ٤٢٩ م) أو على ثغر ترادكتا Traducta الذي عبرمنه الفنـدال الـى إفريقية. ويقول بعض الكتاب العرب إنه عين البلد الذي عرف فيما بعد باسم القائد المغربي طريف ، ولـكن من المـرجح أن تكــون ترادكتا هي الجزيــرة الخضراء Algeciras ، ويكون الفاتحون من العرب والبربر وفقاً لهذه النظرية قد أطلقوا اسم المدينة الصغيرة أو الأقليــم على المنطقة التي عرفها الرومان والقوط باسم « بتيقا » ثم على شبه الجزيــرة بأسرها التي سرعان ما دانت لهم بما فيها من ولايات فرنسا الجنوبية ، وهي : سپتمانيا أي من جاليا الأربونية الى نهر الرون . ولما اخذ النفوذ العربي في شبـه الجـزيرة بالاضمحـلال البطـيء وبــدأ الأسبان يسترجعون البلاد في عهد پلاي Pelayo (من عام ٧١٨) واستمروا في الكفاح أكثر من ثمانيـة قرون ،

فقد اسم الأندلس ـ الذي كان يطلق على مساحة كبيرة من الأرض ـ مدلوله بالتدريج . ولبثت الأقاليم الجنوبية التي ظلت في حوزة العرب تعرف به من وقت الى آخر ، ثم لم يعد يُعرف به بعد ذلك سوى إقليم صغير هو مملكة غرناطة ، كما أن نصارى أشپانيا الشمالية كانوا يجهلون اسم الأندلس جهلا تاماً ، وكانوا يطلقون على الجزء العربي الجنوبي الاسم القديم إسپانيا Hispania أو سپانيا Spania ، أما موطنهم الشمالي فأطلقوا عليه أسماء خاصة مثل

أشتورش Asturias وليون Léon وقشتالة Castille وأرغون Aragon . . إلخ ، وهذا يطابق ما رواه الادريسي ، ص ١٧٤

وقد أخذ العرب بما جاء في مصور بطلميوس المضطرب البعيد عن الدقة ، ولم يكن من السهل عليهم التحقق من الحدود الخارجية التي رسمها للبلاد المختلفة ، ولذلك كثيراً ما وصفوا الأندلس بأنها ذات شكل مركن على مثال المثلث، اركانه PuntaMarroqui

طرف مراكش وجزيرة طريف على بحر الزقاق « كات إكسوخين » باليونانية (مضيق جبل طارق) - في الجنوب ، ورأس الـطرف Finistère في الشمال الغربي ورأس كريـوش Creus وثغر Vendres (Fanum Veneris - هيـكل الـزهرة) في الشمال الشرقي . ويعتبر أحياناً الشاطىء بأكمله من جزيـرة طريف إلى كريوش (المراكشي : المعجب ص ٤) أو إلى طرَّكـونـة وبرشـلـونـة الحـد الجنوبـي ، بينما سلسلة جبال البرتات - التي يزعَم أنها تسير من الجنوب إلى الشمال ورسمت كذلك في المصورات - تعتبر الحد الشرقي .

ثم إن العرب كانوا على صواب كثير عندما أطلقوا فيما بعد اسم شرق الأندلس على الجزء الـذي عرف بعدئذ بمملكتَي بلنسية ومرسية ، وكثيراً ما قالوا إن الحد الغربي على المحيـط الأطلسي يبدأ من جزيـرة طريف وينتهي بطرف القديس فنسان أو طرف رقـةCabo de roca بالقرب من لشبونة . وقد أطلقوا علـى المحيط

الأطلسي اسم بحر الظلمة أو الظلمات والبحر المظلم والبحر المحيط الأعظم والأوقيانوس والقاموس والبحر الغربي تمييزاً له عن البحر الشرقي أو الرومي والشامي والمتوسط . والحد الشمالي يبدأ من طرف رقة ويدور حول ركن جليقية ويصل الى جبال البرتات بالقرب من فونترابي Fuenterrabia والبرتات تعرف أيضاً بجبل البرتات أو بالجبل الحاجز الفاصل بين الأندلس والافرنجة ، كما تعرف سلسلة جبال قشتالة باسم جبل الشاراتSierra وسلسلة جبال سيرا نيڤاداSierra nevada بجبل الثلج أو جبل شلير .

أما فيما يختص بأوصاف الأندلس والمصورات التي عملت عنها ونشرت مثل مصورات شپروبرSpruner ومنكه Menke (جـ ٢ ، ١٨٨) ودرويسن عام ١٨٩٤ م ، والمصورات الموجودة في

Der islam im Morgen . und: August Müller Abendland

جـ ٢ وخاصة في

The Moors in Spain : Poole Stanley Lane

، جـ ٢ ، طبعة ١٨٨٧ فكلها مع الأسف بعيدة عن الـدقة مليئة بالأخطاء التي وصلتنا منذ أيـام الغزيـري Casiri وكـونـد Conde وصوصه Sousa وجوبير jaubert وكايانكـوس Gayangos وهامر Hammer ومهرن Mehren وغيرهـم . ولـم يتناول دوزي الجانب الجغرافي من الأندلس ولـم يتحرّ هذا المؤرخ الناقد العظيم الدقة التامة في تحقيق الأسماء الخاطئة والمحرفة في القسـم الخاص بالأندلس من كتاب الإدريسي (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) . وقد نشر النص العربي مع ترجمته الفرنسية بعنوان

Description de L'Afrique et de L'Espagne par idrisi

، وعلق عليه وذيَّله بالحواشي دوزي وده غويه (ليدن ١٨٨٦) ، وربما كانت هذه الأخطاء راجعة إلى نسخة الإدريسي الأصليـة . ونحن إذا صححنا التفاصيل وقمنا بتحقيـق الأسماء والمـواقع المشتتة في مؤلفات

دوزي وفي مصنفات سافدرا وسيمونيه وإكويلاز Eguilaz وقديرة Codera وباسيه فإننا في الواقع لا نكون قد سرنا إلا خطوات قليلة في سبيل تأليف كتاب علمي في جغرافية الأندلس . وعلى ذلك فمن الضروري أن نجمع كل الملاحظات التي كتبت في هذا الموضوع المتشعب من جميع المصادر التي وصلت الينا سواء أكانت مطبوعة أم غير مطبوعة مما صنفه العرب من مؤ رخين وجغرافيين ، ومن كتب التراجم ودواوين الشعر ، ثم نرتب هذا كله ونوازن بعضه ببعض ونضعه تحت محك النقد والتحليل ونتخذ منه نواة لوصف جغرافي حديث للأندلس ، وأساساً لإعداد مصورات جغرافية جديدة . ولسنا نستطيع أن نستعين بالتحقيقات البعيدة عن العلم والنقد التي قام بها جماعة من العلماء تبدأ بالغزيري Casiri وكوند Conde وغيرهما وتنتهي بهامر ومهرن ، وحسبنا دراسة المجموعة التي لم تمحص ، والتي تتكون من ٨٣٣ اسماً من أسماء الأماكن في شبه جزيرة إيبيريا في صيغ

مضللة محرفة، وهي المجموعة التي ضم شتاتها هامر من غير نقد أو اختيـــار بما عرف عنه من الجنوح إلى تأليف المطولات ونقلها من الغزيـري وكـوند وجوبير Jaubret وكايانكـــوس Gayangos وضيَّع سدى أربعاً وسبعين صفحة من مجلة Sitzungsberichte der Wiener Akadem e ، ١٨٥٤ م .

وإذا انتقلنا إلى التاريخ فإننا نجد العالـم العظيـــم دوزي قد نبذ ظهريـــاً جميع مؤلفات كوند وغيره قبل تصنيف كتابه النفيس Histoire des musulmans d'Espagne واستعان بالمصادر العربيـــة بعد أن حققها ونشرها ، ومع ذلك فعلينا أن نفتح صفحة جديدة في البحث الجغرافي قبل أن نتمكن من تصنيف كتاب علمي في وصف الأندلس ، وقد أوضحت ببعض الأمثلة الطريقة التي يجب أن تتبع ، وهي تشمل من غير شك الـــدراسة المقارنة لمصادر القرون الـــوسطى لاتينية وأسپانيـة من غير أن تغفل المصنفات القديمة ، وبينت كيف نستخرج النتائج من المصادر العربيـــة ،

وكيف نستعين بهذه النتائج في تصحيح اسماء الأماكن القديمة وتحديد مواقعها .

وإبان استعادة الأسپان للأراضي التي كانت عام ١٨٤٠ في حوزة العرب ، وبخاصة بعد الاستيلاء على غرناطة عام ١٤٩٢ م ذهب الـكثير من المصنفات القيمة ـ التي تتحدث عن التاريخ وتقويم البلدان عامة والأندلس بخاصة ـ ضحية التعصب الأعمى . ويجب كذلك ان تُجمع المـواد المتعلقة بالأندلس والمبعثرة في شمالي إفريقية وسائر بلاد المشرق ثم توضع في متناول كثير من العلماء والجغرافيـين والمؤ رخين لترجمتها ترجمة نقديـة مصحوبة بالتعليقات المفصلـة ، كما يجب أن يُدرس بهذه الـطريقة كل ما وردت فيـه إشارة إلى الأندلس من التراث الجغرافي والتاريخي للعرب مبتدئين بالنبذ القصيرة التي كتبها ابن خرداذبه عام ٨٤٦ م ،ثم بمصنفات اليعقوبي وياقوت وغيرها وبالمكتبة الجغرافية التي نشرها ده غويه من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٨٩٤ بنوع خاص ، وأخيراً بالمصنف الضخم الـذي صنفه

أحمد المَقَّري المغربي في دمشق من عام ١٦٢٨ إلى عام ١٦٣٠ م ، وقد جمعه من مائة مصدر عربي ، ويمكن أن يقال عنه انه دائرة معارف في موضوع الأندلس . ولا عبرة بترجمة كناياانكـوس لهذا الـكتاب الحافل بالمعلومات التي تقع في مجلدين (عام ١٨٤٠ - ١٨٤٣ م) لأنها بعيـدة كل البعد عن الـدقة وخاليـة من التمحيص ، ولا يمكن التعويل عليها ، زد على ذلك أن المترجم تحاشى الصعاب بتجاهلها ، وينبغي أن تجمع كل الأسماء والاشارات الجغرافيـة من المعاجم العربية الضخمة الخاصة بتراجم العلماء والأنساب ، لأن غالبها يتناول عدداً كبيراً من رجالات الأندلس ، وهي تثبت ازدهار الأدب في تلك الربوع ، وأهم هذه المصنفات بلا ريب هو « المكتبة الأندلسية » (Bibliotheca Arabico Hispana : Codera) التي تضم في مجلداتها العشرة تراجم أندلسيـة ، ولـكن المؤسف حقّاً أن يتفشى في هذه المكتبة الخطأ والتحريف في أسماء الأماكن .

وسنجمل القول في تاريخ الأندلس ، فإنه يبدأ باحتلال العرب السريع لشبه الجزيرة من عام ٩٢ هـ (٧١١م) فصاعداً ، وقد مزجت قصة هذا الفتح بالكثير من الأساطير ، وقام به أول الأمر - أي الى عام ٧٥٥ م - عمال من قبل خلفاء بني أمية في دمشق يربو عددهم على العشرين ، ولم يكن يلبث الواحد منهم في الحكم قليلاً . وقد توغل العرب في شجاعة الى أن وصلوا الى قلب فرنسا عند مدينتَي تور وبواتييه Poitiers — tours (عام ٧٣٢ م) ثم نشبت الفتنة بين عرب الشمال والجنوب وبين البربر . وفي عام ٧٥٦ م قامت إمارة قرطبة - أي الأندلس - منفصلة عن العباسيين ، على يد عبد الرحمن الأول الملقب بالداخل ، وهو أمير أموي فرَّ من الاضطهادات التي مزقت شمل أسرته . ومن عام ٩١٢ إلى عام ٩٦١ م - أي في عهد عبد الرحمن الثالث الذي جلس على عرش الخلافة عام ٩٢٩ م - وصلت هذه الدولة الى أوج عظمتها ، ثم أخذت في التدهور السريع وخاصة بعد وفاة الأمير الموهوب

المنصور الحاجب (انظر هذه المادة) وهو أعظم ساسة الأندلس وقوادها ، بل يمكننا أن نعتبره بسمارك القرن العاشر . وفي عام ١٠٣١م تلاشت هذه الدولة القديمة وحلت محلها دويلات قصيرة العمر حكمها أمراء يعرفون في التاريخ بملوك الطوائف ، كان أغلبهم على جانب عظيم من الثقافة . وبعد عام ١٠٨٦ م - أي بعد العام الذي انتصر فيه على النصارى يوسف بن تاشفين في واقعة الزلاقة Sacralias شمالي شرق بطليوس - اجتاحت الأندلس قوة المرابطين الغاشمة ، وهم بربر من مراكش ، ثم قضت على المرابطين في إفريقية والأندلس معاً من عام ١١٤٥ الى عام ١١٥٠ طائفة دينية وسياسية هي دولة الموحدين التي أخذت تضمحل هي الأخرى تدريجيّاً بعد الهزيمة التي منيت بها في واقعة العُقاب Las Navas de Tolosa عام ١٢١٢ م .

وبعد عام ١٢٣٦ م انحصر سلطان العرب في امارة غرناطة المشهورة الناشطة ، وبالرغم من حماية الجبال

لهذه الإمارة ، فانها اعترفت بسلـطان قشتالـة ، ثم سقطت عام ١٤٩٢ ، وتلا ذلك ، وبخاصة بين عامي ١٥٦٨ و ١٥٧٠ ، ثورة الموريسكـو Moriscoes وفي عام ١٦٠٩ طُرد المستعربون Les Mozarabes والمُدجّنون Les Mudejares واليهود ولا يتسع المجال هنا للافاضة في هذا التاريخ الطويل ، وحسبنا أن نحيل القارىء إلى المواد الخاصة التي تبحث في شتى جوانب هذا الموضوع ، مكتفين ببيان الدول المختلفة التي حكمت الأندلس مع ذكر أسماء حواضرها :

بنو أمية وحاضرتهم قرطبة وحكموا من عام ٧٥٦ ـ ١٠٣١ م .

بنو عباد وحاضرتهم إشبيلية وحكموا من عام ١٠٢٣ ـ ١٠٩١ م .

بنو جَهْور وحاضرتهم قرطبة وحكموا من عام ١٠٣١ ـ ١٠٧٠ م .

بنو حمُّود وحاضرتهم مالقة وحكموا من عام ١٠٣٥ ـ ١٠٥٧ م .

بنو زيـــري وحاضرتهم غرناطة وحكموا من عام ١٠١٥ ـ ١٠٩٠ م .

بنو برزال وحاضرتهم قرمونة وحكموا من عام ١٠٢٩ ـ ١٠٦٧ م .

بنو بكر وحاضرتهم وَلْبَة وحكموا من عام ١٠١١ ـ ١٠٥١ م .

بنو يُحيى وحاضرتهم لَبْلَة وحكموا من عام ١٠٢٣ ـ ١٠٥١ م .

بنو مُزَيْن وحاضرتهم شِلْـب وحكموا من عام ١٠٢٨ ـ ١٠٥١ م .

سعيـد بن هارون وابنه أحمد وحاضرتهما شنتمريـة الغرب وحَكَما من عام ١٠١٦ ـ ١٠٥٢ م .

بنو الأفطس وحاضرتهم بطليوس وحكموا من عام ١٠٢٢ ـ ١٠٩٢ م .

بنو ذي النون وحاضرتهم طليطلة وحكموا من عام ١٠٣٦ ـ ١٠٨٥ م .

بنو عامر وحاضرتهم بلنسيـــة وحكموا من عام ١٠٢١ ـ ١٠٦٥ م .

بنو هود وحاضرتهم سرقسطة وحكموا من عام ١٠٣٩ ـ ١١١٠ م .

بنو رزين وحاضرتهم شنتمرية الشرق أو شنتمرية ابن رزين وحكموا من عام ١٠١١ ـ ١١٠٣ م .

بنـو القاســم وحاضرتهـــم الفنـــت Alpuente وحكموا من عام ١٠٢٥ ـ ١٠٩٢ م .

بنو صمادح وحاضرتهم المريــة وحكموا من عام ١٠٤٤ ـ ١٠٩١ م .

(انظر البيان التاريخي الموجود في Dozy : Histoire الذيل ، وقد أخذ هذا البيان عن ستانلي لين پول)

ولـــدينا عن تاريخ الأندلس ما بين عامي ٧١١ ـ ١١١٠ م كتاب دوزي القيم
Histoire des musulmans d'Espagne

ليدن ١٨٦١ ، الترجمة الألمانية ، ليپسك ١٨٧٤ وقد ترجمه F . de Castro إلى اللغة الأسپانية في مجلـدين ، إشبيليـة ـ مجريـط ، ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ م ، والمختصر الذي قام به ميلر A . Müller

ويجب ان نرجع في المسائل التي كثر حولها الخلاف والنقط التي ثار حولها الجدل الى البحوث الحديثة مثل بحث Saaverda : Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana، مجريط ١٨٩٢ الذي يذهب فيه إلى أنه من المحتمل أن يكون لذريق Rodrigo قد فر عقب الوقعة التي حدثت بينه وبين البربر في اقليـم البحيرة عام ٧١١ م وقاتل قتال الشجعان في الشمال الغربي حتى عام ٧١٣ ولقي حتفه في هذا القتال اثناء قتاله مع موسى في وقعه Segoyuela and Tamâmes جنوبي سلمنقة ، ويؤ يد هذا الرأي الموضع المعهود لقبـره في فيزيو Vizeu في شمالي البرتغال .

أما عصر المرابـطين والموحـدين وعصر بنـي نصـر وبني الأحمر (١٢٣٢ ـ ١٤٩٢) في غرناطة ـ أي المدة

ما بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر الميلادين - فيحتاجان إلى جهودمؤ رخ آخرمثل دوزي يكون همه الأول الاستفادةالتامة من المراجع العربيةولا شك أننا نرحب بالمقالات المتفرقةمثل مقالات (قديرة Codera) لأنها تزودنا بالموادالتي يجب أن نضعها موضع النقدوالتحليل. كما أن ترجمات فانيان Fagnan لكثيرمن المصنفات العربية الخاصة بتاريخ الأندلس والمغرب تعودعلينا بالفائدة الجزيلة، وهذه الترجمات هي :

L'histoire des Almohades d'après Abd él-Wahid Merrakechi الجزائر ١٨٩٣ ، Chronique des Almohades et des Hafcides attribuée à Zerkechi قسنطينة ١٨٩٥ ،

Ibn el Athir Histoire Annales du Maghreb et de: L'Espagne الجزائر ١٨٩٨ - ١٩٠١ ، de L' Afrique et de L'Espagne intitulée al Bayno'l moghrib En Nodjoum ez zahira لابن عذارى ، جـ ١ ، الجزائر ١٩٠١ ، جـ ٢ ، ١٩٠٤م،

En Nodjoum ez zahira Extraits relatifs au Maghreb والترجمة الأخيرة عبارة عن فقرات ترجمها فانيـــان من كتاب ابي المحاسن بن تغرى بردى ، قسنطينة ١٩٠٧ . ومن المؤسف أن أسماء الأماكن في جميع الترجمات السالفة لم تحقق تحقيقاً كافياً .

وامتازت المرحلـــة الأخيرة التي دامت ٨٠٠ عام بالنضال الشريف في سبيل استعادة الأندلس الجميلة ، وهي دون غيرها قد أوحت إلى المؤرخين مرة إثر المؤلفات التي تتراوح بين اندفاع العاطفة والجد العلمي . ويجب ان تنال هذه المؤلفات نصيبها من الاهتمام عند تدوين تاريخ نهائي لغرناطة والحمراء ، وهـــذا ما فعلـــه L.de Eguıaz Gayangos في كتابـه Resena hitsorica ed la Conquista del reino de Granada por los Reyes Cotalicos segun los cronistas arabes الطبعة الثانية ،غرناطة ١٨٩٤ وهو من أحدث البحوث في هذا الموضوع. أما عن جغرافية مملكة

غرناطة الصغيرة فكتاب سيمونيه المتوفى عام ١٨٩٧ ما زال العمدة ، ولو اننا يجب أن نتناول كثيراً مما ورد في طبعته الثانية بشيء من الحيطة ونضعه موضع النقد Descripcion del: Simonet), reino de Granada sacada de los autores arabes مجريط ١٨٦٠، الطبعة الثانية عام ١٨٧٢ م) . وكذلك يجب أن نرجع إلى كتاب قيم آخر للمؤلف نفسه فيما يختص بتاريخ الأندلس في العهد العربي عامة Hisroria de los Mozarabes :Simonet ; de Espano deducida de los mejores y mas autenticos testimonios de los escritores cristianos y arabes . - مجريط ١٨٩٧ - ١٩٠٣، المجلد ١٣ في Memorias de la Real Academia , de la Historia ، الثمان والخمسون صفحة من المقدمة مضافة الى التسعمائة والست والسبعين صفحة من الأصل) .

ولا يوجد بين التواريخ التي وضعت عن البلاد والأماكن المشهورة بالأندلس سوى عدد قليل له قيمة

تاريخية مثل Alvara Bosquejo historico:
Campaner y Fuertes de la dominacion islamita en las Islas Baleares
(بالما ١٨٨٨ م ، وانظر عن هذا الكتاب Codera :
Estudios criticos de historia arabe espanola
. Collecion de Estudios arabes جـ ٧ ، سرقسطة
١٩٠٣ م ، ص ٢٤٩ - ٣٠١ ، Les Benou: Alfred Bel
Ghanya, derniers représentants de L'Empire almo - ravide et leur lutte contre L'empire almohade
باريس ١٩٠٣) ، Marianogaspar Remiro:
Historia de Muricia musulmana سرقسطة
١٩٠٥ وغيره . وكتاب Altamira الحديث
الشامل : Historia de Espana y de la civilizacion
espanola . جـ ١ - ٣ ، برشلونة ، طبعات ١٩٠٠ ، ١٩٠٢ ، ١٩٠٦ ، وهو يتحدث عن تاريخ الأندلس حتى عام ١٧٠٠ م وهو مفيد في بعض الأحيان ، ولو أنه اعتمد في كلامه عن العهد العربي على مصادر

ثانوية ، ويجب أن نتناول ما جاء به في حيطة ونضعه موضع النقد . وقد اعتمد TH . Linder في الغالب على A . Müller في إلمامته الجيدة عن الأندلس Weltgesch . seit der Volkerwanderung جـ ٢ ، شتوتكارت ـ برلين ١٩٠٢ ، ص ١٠٢ ـ ١٤٠) .

وينبغي لنا أن نذكر من بين المؤلفات التي تتحدث عن المصادر ما يأتي :

F. pons Ensayo bio- bibliographico sobre: Boigues los historiadores y géografos arabigo-esapnoles Gesch. arab. d. Liter

وهذا الكتاب يتحدث أيضاً عن أدباء الأندلس ولو آن تراجمه ـ وخاصة في المجلد الأول ـ غير مستوفاة في كثير من الأحيان ، ويعطينا Shack في كتابه Poesie und kunst der Araber in Spanien und Sicilien الطبعة الثانية شتوتكارت ١٨٧٧ أحسن وصف للشعر الوافر الذي تغنى به شعراء الغزل الأندلسيون وأضرابهم من عرب المغرب وللفن المغربي الذي يتجلى في عمائرهم التي تتميز بكثرة الزخرف (نقوش على

النمط العربي ومقرنصات وزخرفة خطية) ويغلب فيها الميل الى الزخرفة على الميل الى الانشاء والبناء . وقد تعقب شاك Shack تطور العمارة مبتدئاً بالجامع الكبير بقرطبة (٧٨٦ م) ومنتهيـاً بالتحفة الفنيـة المعروفة بالحمراء . وأحسن الصور الخاصة بهذه العمائر وأحفلها بالألـوان هي التي وردت في Moorish remains: Calvert, in Spain (Cordova, Sevilla Toledo, Granada ; ١٩٠٦ - ١٩٠٧ . ولـم تخط الأبحاث التي تتناول كيفية ومدى تأثير حضارة العرب في الأندلس على الغرب سوى بضع خطوات ، وهذا ينطبق مثلاً على المسألة التي لم تحل بعد ، وهي الخاصة بمدرسة النقلة بطليطلة والشأن الذي كان لذلك اللون الجديد من الأدب اليهودي الـذي انتجه يهود الأندلس وازدهر في كنف الاسلام .

تعليقات على مادة «الأندلس»

(١) الأندلس : كلمة اعجمية جرى على الألسن أن تلـزمها الألف والـلام ؛ غير أن البعض يحذفونهما وبخاصة في الشعر ومن ذلك :

سألت القوم عن أنس فقالوا
بأندلس وأندلس بعيد

وقد أصاب مؤلف المادة اذ لم يأخذ بما ذهب اليـه بعض المؤلفين العرب القدماء من أن الأندلس سميت كذلك نسبة إلى أندلس بن طوبال بن يافث ، فقد اعتادوا التسليم بالروايات البعيدة عن الصواب لما فيها

من طرافة تستهويهم ، ومنها قولهم : إن أندلس بن طوبال هذا كان يصاحبه أخ له يدعى سبت بن يافث فنزل العدوة المقابلة للأندلس بالمكان المعروف الآن باسمه وهو سبتة .

وسيجد القارىء مثل هذه الرواية في الحاشية رقم ٣ التي ستأتي بعد فيما يتعلق بأصل تسمية أسبانية ، وهو بعيد عن موطن الصواب الذي هو عين ما أشار اليه كاتب المادة من أن كلمة أندلس مشتقة من الڤندال الذين استولوا على هذه البلاد حقبة من الزمن

وفي نفح الطيب للمقرى ـ وهو قريب مما عليه إجماع المحققين الآن ـ : « أول من سكن الأندلس قوم يعرفون بالأندلس ، أي الڤندال ـ بهم سمي المكان فعرب فيما بعد بالسين ، كانوا هم الذين عمروها وتناسلوا فيها وتداولوا ملكها دهراً على دين التمجس ، ثم أخذهم الله بذنوبهم ففر أكثرهم فأقفرت الأندلس منهم وبقيت خالية فيما يزعمون مائة سنة وبضع عشرة سنة » .

(٢) إيبيريا Ibérie والإيبيريون Les Ibères من اليونانية Iberi : شعب مجهول الأصل والمصدر عاصر في أسپانيا القديمة دول القلت Celtes والفينيقيين واليونان والرومان وقد انتشر في أسپانيا كلها وجنوبي فرنسا ، فالإيبيريـون على هذا الحساب هم أقدم أمم غربي أوروبا . وفي تحقيقات العلماء ما يثبت أنهم من أسپانيا انتشروا في فرنسة كلها فإيطاليا وبريطانية العظمى . ومع هذا فإن اسم ايبيريـا لم يشمل في فرنسا سوى الأراضي غرب نهر الرون . وقد ظهرت أمة القلت في فرنسا فاكتسحت أمامها الإيبيريـين الى أسپانيـا حيـث اختلـطت أنساب الفريقين بعضها ببعض فنشأت أمة جديـدة أسميـت القلتيبيريـين Celtibéres . وذكـر ديـودورس الصقلي المؤرخ هذا الاختلاط فقال : إن القلت والايبيريين قضوا في المحاربات ردحاً طويلاً من الزمن ثم تصالحوا وخلطوا أنسابهم فتولد منهم شعب جديـد . وقد اختلف المحققون في أصل الايبيريـين وسبب دخولهم أسپانيا ، فقال بعضهم : إنهم أغاروا

عليها من الشمال والبعض الاخر إن الاعارة جاءت من الجنوب . وذهب غيرهم الى انهم انحدروا من أهل أسپانيا النازلين على ضفاف نهر إبْرُه (بسكون الباء والهاء وضم الراء) L'Ebre أو Ibérus . وفي آسيا على مقربة من بلاد فارس قوم يدعون بالايبيريين كإيبيريي أسپانيا سواء . ويقول فريق من العلماء إنهم لا شأن لهم بهؤلاء ، ولكن المغفور له أحمد زكي باشا ذكر في تحقيق له أن نقوداً قديمة ضربت بشارة لإيبيريي آسيا ـ وهي الذئب الأغبر ـ وجدت في حفائر أسپانيا وأنها الدليل على أن من هؤلاء انحدر الإيبيريون الأسپانيون على أثر هجرتهم الىّ اسپانيا بطريق البحر .

(۳) أشبانية :Espagne أسماها الرومان Hispania وكانت تسمى من قبلهم Hespérie أي بلاد المغرب أو المغرب . وقال المقَّرى في سبب تسمية أشبانيا بهذا الاسم : « إنه لما صار ملك الأندلس الى عجم رومة وملكهم أشبان بن طيطش سميت الأندلس

أشبانية ، وقد ذكـر بعضهم أن اسمه أصبهان فأحيل بلسان العجم . وقيل بل كان مولده بأصبهان فغلـب اسمها عليه . وهو الذي بنى إشبيلية . وكانت أشبانية اسماً خالصاً لإشبيلية التي كان ينزلها أشبان ثم غلـب الاسم بعده على الأندلس كلــه فالعجم الآن يسمونه أشبانية لآثار أشبان هذا فيه » . انتهى كلام المقرى ، ونقول إنه من قبيل كلام الــذين زعموا أن الأندلس وسبتة إنما سميتا باسمي أندلس وسبت ابني طوبال بن يافث وهو كثير امتلأت به كتب التاريخ العربية القديمة مثل قولهم إن إفريقيــة سميــت كذلك باسم فاتحها أفريقش من أمراء اليمن ، وهو قول ظاهر الفســاد والبطلان لأقل تأمل وأيسر تمحيص ، وإنمـا سميت إفريقية بهذا الاسم من افراغن Afraghen اسم قبيلـة بربرية نزلت حول مدينـة قرطاجـة بتـونس فأسـميت باسمها في العصور الماضية .

(٤) بتيقا باللاتينية Baetica وبالفرنسية Bétique : شطر أشبانيا القديمة الذي كان يخترقه النهر الـكبير

Guadalguivir ويحده من الشمال إقليم أناس Anas ومن الشرق طركونة Tarragone ومن الجنوب البحر المتوسط وبحر الظلمة (الأطلنطي) بحيث يضم في نطاقه القطر الذي كان معروفاً بأندلس وإقليم غرناطة وجزءاً من قشتالة الجديدة والبرتغال . ووصف پليناس Pline ذلك القطر بخصب الأرض وبأنه كان على عهد الرومان ينقسم أربع دوائر قضائية في قادس وقرطبة وإستجة وإشبيلية . وكان به في ذلك العهد **١٣٥** مدينة عامرة من أشهرها إشبيلية Hispalis وطرطوشة Tartessus وقرطبة Corduba وأصطبة Astapa وقادس Gadès ومالقة Malaca وأنتقيرة Antaquera (والأسماء الافرنجية هنا مرسومة برسمها القديم) . وكان يسكن تلك المدن أقوام اتصلوا بالفينيقيين والقرطاجيين قبل أن يحتكوا بالرومان . فبتيقا هذه بحدودها الآنفة هي التي هبطها قوم الفندال المنحدرين من ألمانيا ومن ثم عزيت اليهم فأسميت فندالیشيا ـ كما ذكره مدون المادة ـ ثم حرف هذا

الاسم على توالي الزمن الى Andalousia أي الأندلس .

(٥) الأربونية : نسبة الى أربون ، وهي احدى مدن جنوبي فرنسا الآن فيما يلي جبال البرانس Pyrénées على مسافة ٥٥ كيلــو متراً من قرقشونة Carcassonne وأصل رسمها بالفرنسية Narbonne أي نربون فحرفها العرب وكــانت من منضماتهم بعد اختراقهم تلك الجبال الى أربونة . وقد وردت بهذا الرسم في معجم ياقوت الذي قال : « أربونة بلـد في طرف الثغر من أرض الأندلس بينها وبين قرطبة ـ على ما ذكـره ابن الفقيــة ـ ألف ميل » . وهي في عهدنا الشاهد بندر مقاطعة أود Aude وشهرتها بجودة عسلها وخمرها وبأنها مسقط رأس طائفة من قياصرة رومة .

(٦) اشتورش : أوردهـا ياقـوت الحمـوي في معجمه بالسين بدل الشين في موضعيها ، وقال انهـا بضـم الهمزة وأنها حصن من أعمـال وادي الحجـارة بالأندلس أحدثه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأمـوي صاحـب الأنـدلس ، عمـره في نحـر العدو .

(٧) ورد تعريب كلمة Léon في المصنفات العربية على ضربين احدهما (لاون) وقد ذهب إليه الإدريسي وغيره ، والآخر (ليون) بمقتضى منطوقه الإفرنجي ، والى هذا الرسم ذهب المقرى في مواضع شتى من كتابه نفح الطيب إذ قال في أحدها : « ومعادن الفضة بناحية إفرنجة وليون » . وكانت مملكة ليون القديمة متصلة بمملكة أشتورش ثم انفصلت منها في سنة ٩١٥ م وانضمت إلى قشتالة مرتين إحداهما في القرن الحادي عشر والأخرى في الثالث عشر .

وكانت مملكة ليون القديمة تضم ضمن حدودها من ولايات أسپانيا بحسب التقسيم الحاضر : ليون وبلد الوليد وشلمنقة وسمورة (ويقال أيضاً : زمورة) . وكلمة Léon تسمى بها أيضاً الجزيرة التي تقوم عليها مدينة قادس بجنوب أسپانيا .

(٨) كلمة Aragon عرّبها العرب على وجهين : الأول أرجون بالجيم ورد في نزهة المشتاق للادريسي وغيره ، والثاني بالغين وقد ذكره المقرى في جملة مواطن

من نفح الطيب إذ قال في أحدها : « والإقليم الخامس يمر على طليطلـــة وسرقسطة وما في سمتها إلى بلاد أرغون » غير أنه في مواطن ذكرها بالجيم وهذا يفيد أن عرب الأندلس كانوا يجمعون بين الوجهين في رسمها ، فاختر لنفسك ما يحلو .

ولا تخلـط أرجون مدينة وإقليماً بمدينة أرجونة لمجرد التشابه اللفظي ، فإن أرجونة بلد بناحية جيـان Jaen بالأندلس الأصيل أي بالنصف الجنوبي من أشبانيا ، أما أرجون ففي أقصى النصف الشمالي منها اذ تتصل حدودها الشماليـــة بجبال البرانس من غير فاصل . وأرجون هو في الأصل اسم نهر ينحدر من تلك الجبال ويصب في نهر إبْرُهْ Ibre فأسمي واديـــه الأعلى باسمه الذي سرى فيما بعد على الأراضي الفسيحة والولايـات الكبيرة التي انضمت الى هذا الوادي وتألفت منها مملكة أرجون وامتدت من جبال البرانس شمالاً الى جبال كونكة Cuenca (قونكة أيضاً) جنوباً ثم الى بلنسيـة شرقاً غير أنها لم تلبث على مر الأجيـال أن تجزأت الى

ولايات ومقاطعات نذكر منها مقاطعة وشقة Huesca ومقاطعة سرقسطة Saragosse وغيرهما .

(٩) طرف القديس ڤنسان . Cap de St Vincent :
هكذا يسمونه في الجغرافيا الحديثة ، وكان الأشبانيون يسمونه من قبل « طرف الغرب » Promontoire d'Algarve بالاضافة الى ولاية أو بلاد « الغرب » L'Algarve التي يتألف منها القسم الجنوبي من البرتغال . فكلمة Algarve إذن كلمة عربية أصلها الغرب بالابدال من حرف الباء حرف v . وقد كان ملوك البرتغال ـ الذين أخضعوا المغرب الأقصى (مراكش) لحكمهم عهداً ما ـ يتلقبون بملوك الغربين Les rois de deux Algares يريدون بلاد الغرب البرتغالية الآنفة الذكر وبلاد المغرب الأقصى .

وسبب تسمية طرف الغراب برأس أو طرف القديس ڤنسان أن هذا القديس قتل في بلنسية في عهد قيصر الرومان دقلطيانوس المشهور بجوره واضطهاده المسيحية وألقت جثته في العراء كي تنهشها الضواري

وتفترسها الجوارح ولكن قيل : إن غراباً هبط فحرسها ومنع عنها عادية هذه الحيوانات . وفي عهد الخليفة عبد الرحمن الأول الأموي نقل أهل بلنسية الجثة الى طرف الغرب وبنوا عليها كنيسة اشتهرت فيما بعد بكنيسة الغراب وسمى طرف الغرب من هذا الحين برأس القديس سان ڤنسان .

(١٠) Cabo de Roca بالبرتغالية و Cap de la Roche بالفرنسية : رأس على ساحل مقاطعة إشبونة داخل في البحر الى غربها في ارتفاع ١٤٢ متراً . كان في عهد الرومان يسمى Torium Magnum ومعناه باللغتين البرتغالية والفرنسية رأس الصخرة أو طرفها . وقد كان في استطاعة العرب أن يسموه في العربية بما يطابق هذا الاسم ولكنهم آثروا تعريبه بلفظه فقالوا « طرف رُقّة » بضم الراء وفتح القاف المشددة .

(١١) اجتمعت للأقيانوس الأطلنطي ـ المنسوب الى اطلنطيد ، وهو قارة قالوا إنها كانت ظاهرة على سطحه ثم غاصت ـ أسماء كثيرة هي التي ذكرها محرر

المادة . ونحن نضيف اليها وصف الإكليلي ـ نسبة إلى الإكليل ـ ذكر أحمد بن ماجد الربان العربي الملقب بأسد البحر في إحدى رسائله في علم البحر سبب وصفه بالإكليلي فقال لأنه يكلل العالم .

(١٢) فونتارابي بالفرنسية Fontarabie وبالأسپانية : Fuenterrabia وباللاتينية الجديدة Fons repalus اسم مدينة عند سفح جبل جيزكي Jaizqui وعلى مقربة من مصب أحد الأنهر في خليج الإنقليشيين (خليج بسكاي أو غسقونيا) تجاه بلدة هنداي Hindaye الفرنسية ويشتق ذلك الاسم باختلاف أوضاعه من كلمةOndarralia التي تفيد في لغة البشكنسle Basque معنى « مخاضة الرمل » ذلك لأن الرمال في منطقتها تختفي وتظهر بفعل المد والجزر ، وتحمل قصورها الجليلة شارات اصحابها من الأشراف والنبلاء السابقين وبها عقد الملك لويس الرابع عشر زواجه من الأميرة ماري لويز . وفي مقالعها حجر الطباعة وحجر الطواحين .

(١٣) جبال Pyrénées الفاصلة بين فرنسة وأشبانية بين البحر المتوسط وخليج الإنقليشيين (بسكايه) : أسماها العرب جبال البرانس ، ووجد لها أحد محققينا اسماً آخر وهو « البرنات » بنون بعد الراء وهو خطأ صوابه البرتات بالتاء لا بالنون أي أبواب الجبال ومنافذها التي مر العرب منها لاقتحام أرض فرنسة .

وكتب مؤلف هذه المادة لتفسير معنى البرتات الجملة الآتية (Monts des ports (Puertos أي « جبال المواني‌ء » وفسر كلمة ports الفرنسية منها بكلمة (puertos ; الأسبانية واضعاً إياها بين قوسين . وهذه الكلمة الأسپانية تفيد بلا نزاع معنى حلوق الجبال وأبوابها ومنافذها التي توصل gorges de Montagnes من جنبها إلى الجانب الآخر وهذا المعنى هو المراد لا المواني‌ء إذ لا مواني‌ء في الجبال .

وفي التقسيم الاداري للقطر الأشباني أيام العرب أطلق اسم « البرتات » على إقليم من أقاليمه الشمالية

يتصل بجبال البرانس في جزئها الــذي يحتوي تلك الحلوق أو المنافذ أو الأبواب .

وللجبال البرانس اسم آخر أشار اليه مؤلف المادة وهو « الحاجز » وقد ذكره الحجاري في كتابه المسهب حيث قال : « إن طول الأندلس من الحاجز الى إشبونة ألف ميل » وقال : « ومسافة الحاجز أربعون ميــلاً ـ والصواب ٣١٢ ميــلاً ـ وهذا عرض الأندلس عند رأسها ولقلته سميت جزيرة وإلا فإنها ليست بجزيـرة على الحقيقة لاتصال هذا القدر بالأرض الكبيرة » أي قارة أوروبا . وقال ابن سعيــد : « وهنالك الحاجز الـذي يفصل بين الأندلس والأرض الـكبيرة وفي هذا المكان جبل البرت ـ مفرد برتات ـ الفاصل في الحاجز المذكور وفيه الأبواب » أي الحلوق التي مر منها عرب الأندلس لشن الغارة على فرنسة .

(١٤) معنى كلمة Sierra في اللغة الأشبانيــة « المنشار » ومعناها أيضاً الجبل أو سلسلة الجبال لأنها تشبه في تعاقبها أسنان المنشار . وقد نقل عرب أشبانية

الى لغتهم كلمة Sierra مفرغة في قالب « شارة » للمفرد و« شارات » للجمع . وفيما صنفوا من كتب الجغرافيا أن جبل الشارات المسمى الآن باللغة الفرنسية Monts des sierra هو الجبل العظيم الذي يأخذ من ظهر مدينة سالم Medinaceli إلى أن يأتي قرب مدينة قلمرية Coimbre في آخر الغرب أي في آخر بلاد البرتغال . وفي التقسيم الإداري لأشبانية على عهد العرب أطلق اسم إقليم الشارات على إقليم يتصل بجبل الشارات وهذا الاقليم يلي اقليم بلاطه Plata وفيه من المدن : طَلَبيرة Talavera ومجريط Majerit أو Madrid والفهمين Alafmin ووادي الحجارة Guadalajarra وأقليش Uclés ووبذة Huete . وقال الادريسي في نزهته : « جزيرة الأندلس مقسومة من وسطها في الطول بجبل طويل يسمى الشارات فما خلفه في جهة الجنوب يسمى أشبانية وما خلفه في جهة الشمال يسمى قشتالة » . هذا وقمة الجبل تسمى في اللغة الاسپانية cerro فلا تخلطها باسم الجبل في اللغة

بعينها وهوsierra كما قدمناه .

(١٥)أسمى العرب سلسلة جبال Sierra Nevada بجبال الثلــج أو جبل شُلَــيْر (بضم ففتح فسكــون) الـذي قال ياقوت في التعريف به : « إنه جبل بالأندلس من أعمال إلبيرةEivira لا يفارقه الثلج شتاء ولا صيفاً » وفي وصفه قال أحد المغاربة وقد مر به :

يحل لنا ترك الصلاة بأرضكم
وشرب الحميا وهو شيء محرم
فراراً إلى نار الجحيم فإنها
أخفّ علينا من شلير وأرحمُ

وجبل الثلج هذا أو جبل شلير أعلى جبال أشبانية إذ هو يسمو على أرفع قمة في جبال البرانس بقدر ١٥٢ متراً ولذا يراه الرائي من مدينة وهران بقطر الجزائر كما تُرى سواحل إفريقية من أعلاه على بعد ٢٠٠ كيلو متر أي اكثر من المسافة بين القاهرة والاسكندرية على خط مستقيم . وتمتد سلسلته من إقليـم غرناطة الى اقليـم

المرية Almeria في طول ١٥٠ كيلو متراً وعرض ١٥ إلى ٣٠ كيلـو متراً . ومن « ثلـوجه الهطالـــة » ـ وهذا هو المعنى الدقيـق لكلمة Nevada في اللغة الأشبانيـة ـ تتولد المياه التي تغذي نهر شنيل (Génil بالفرنسيـة و Xenil بالأشبانيـة)وهو النهر الــذي يجري قبلي مدينة غرناطة ويسوّى في نظر أهلها ألف نيل كنيل مصر ، لأن اسمه مركب مزجي من حرف (ش) الذي كان ولا يزال يعدل ١٠٠٠ بحساب الجمل عند المغاربة ثم من (نيل) وهو نيل مصر .

وأعلى قمم جبل شلير القمة المشهورة باسم Cerro Mulahacen أي قمة مولاي حسن الذي دالـت دولـة العرب نهائياً في الأندلس ودك ركنها وثُل عرشها في عهد ابنه أبي عبد الله الـذي يسميـه الافرنج Boabdil آخر ملـــوك بني الأحمر وآخر ملـــوك العرب في الفردوس المفقود .

(١٦) الغزيـــري : هو ميخائيل الغزيـــري من غزيـــر احدى قرى لبنان على مقربة من بيروت ،

مستشرق ولد في طرابلس الشام سنة ١٧١٠ م من أبوين مارونيين وتوفي في مجريط (مدريد) يوم ١٢ مارس سنة ١٧٩١ . وقد تلقى العلم في رومية وتخصص في درس اللغات السامية وبرع فيها فعين مديراً لمكتبة الاسكوريال فتوفّر فيها على درس المخطوطات العربية التي تحتويها هذه المكتبة واودع ثمرات بحوثه كتاباً عنوانه Bibliotheca arabico hispana escurialensis طبع بمجريط سنة ١٧٦٠ - ١٧٧٠ في مجلدين . وقد استدرك درنبورغ Derenberg على كثير من مواد هذا المصنف في كتاب ألفه تحت عنوان Les Manuscrits arabes de L'Escurial وطبعه بباريس سنة ١٨٨٤

محمد مسعود

الأندلس ، أو شبه جزيرة الأندلس : مصطلح جغرافي كان يدل في العالم الاسلامي - حتى نهاية العصور الوسطى - على شبه جزيرة ايبيريا ، أي اسبانيا والبرتغال الحديثتين .

أولاً : معنى التسمية الاصطلاحية للفظ الأندلس .

ثانياً : إلمامة بجغرافيتها .

ثالثاً : معالم جغرافيتها التاريخية .

رابعاً : سكان الأندلس .

خامساً : تطورها .

سادساً : إلمامة بتاريخ الأندلس ، ملحوظ الاندلس في شمالي أفريقية .

سابعاً : الاسلام في الأندلس .

ثامناً : الفن الأندلسي .

تاسعاً : الأدب الأندلسي والثقافة الأندلسية .

أولاً - معنى التسمية الاصطلاحية للفظ الأندلس

يرتبط اسم الأندلس فرضاً باسم الوندال (الأندليش) الذين أطلقوا على بايتيكا اسم « وندا ليشيا » عندما عبروا شبه جزيرة إيبيريا قبل غزوهم لشمالي افريقية . وورد ذكر الأندلس في عهد متقدم يرجع الى مستهل عام ٩٨ هـ (٧١٦ م) على دينار مكتوب بلغتين ، والنقش اللاتيني فيه يورد لفظ « اسبانيا » مرادفاً للأندلس ، وهذا اللفظ أو صنوه « هسبانيا » كانا هما اللفظين الوحيدين اللذين استعملهما الاخباريون اللاتين الاسبان الأوائل للدلالة على شبه جزيرة ايبيريا باعتبارها كلاً واحداً أي على الأسبانيتين المسيحية والاسلامية . ومن جهة أخرى

يبدو أن استخدام الكتاب العرب لمصطلح الأندلس كان دائماً مقصوراً على أسبانيا الاسلامية مهما كانت رقعها التي كانت تتناقض باضطراد بسبب عودة المسيحيين الى غزوها(Reconquista) . وقد استخدم مصطلح الأندلس حتى عندما انحصرت سلطة المسلمين في شبه الجزيرة في إمارة غرناطة النصرية الضئيلة للدلالة على رقعة هذه المملكة الصغيرة وحدها . ومن جهة أخرى نجد أن الاخباريين المسلمين استخدموا مدة من الزمن أسماء (بالصيغة العربية) إشبانيا (هسبانيا ـ اسبانيا) وأسماء الإمارات المسيحية التي تكونت نتيجة عودة المسيحيين الى غزو الأندلس ، وهي : ليون(Léon) وقَشْتالَّة أو قَشتِيلَة(Castıle ,Castılla) وبرتقال(Portugal) وأراغون(Aragon) ونَبارَّة(Navarre)

ومن اسم الاندَلُس (ترد أحياناً صيغة الأنْدُلُس وبخاصة في أزجال ابن قزمان) يشتق المصطلح السلالي « أندلسي » والمصطلح الجماعي « أهل

الأندلس » . واستبقى هذا المصطلــح في الاستعمال الحديث للدلالة على المنطقة الجغرافية التي تكونت من اقليــم البحر المتوسط الأدنى (المناطق الساحليــة والأراضي الجبلية) المناظرة ، من الشرق الى الغرب ، للصقع الممتد من ولاية المريةAlmeria الحديثة الى ولاية وَلْبةHuelva والى اقليم اندلوسياAndalusia الـطبيعي (اندالوثيـا بالأسبانيـة) ويسمى سكـانه أندولوثيــين Anduluces (ومفرده أندالوز) .

ثانياً - إلمامة بجغرافيتها

١ - الموقع الطبيعي : تقع شبه جزيرة ايبيريا جنوبي غرب اوروبا ، وهي تكون كتلة جسيمة داخلة في البحر تكاد تكون خماسية الشكل وتصلها بالقارة سلسلة جبال البرانس ، أما الجوانب الباقية فتحف بها مياه المحيط الأطلسي والبحر المتوسط . وهي تقع بين خطَّي عرض ٤٣° ٤٧َ ٢٥ً و ٣٥° ٥٩َ ٣٠ً شمالاً وخطَّي طول ٩° ٣٠َ و ٣° ١٩ شرقاً . ومسطَّحها حوالي ٢٢٩,٠٠٠ ميل مربع ، ومساحة البرتغال الحديثة أقل من خمس هذه المساحة الكلية (تبلغ مساحة اسبانيا الحديثة ١٩٥,٠٠٠ ميل مربع) .

ووقوع شبه الجزيرة في الطرف الغربي من حوض البحر المتوسط مع وجود شاطىء كبير على المحيط

الأطلسي يفسر الكثير من الأحداث في تاريخها . ويفصلها عن باقي قارة أوروبا حاجز جبال البرانس ، ولا يفصلها عن افريقية إلا مضيق جبل طارق الذي يحده من الشمال والجنوب رأسا طريف وسبتة ، وكان من نتائج ذلك أن أصبح لها طابع جزري عزل الكتلة الإيبيرية طويلاً عن مؤثرات ما وراء جبال البرانس ، بينما تركها مفتوحة منذ أقدم العصور للمؤثرات الشرقية من جهة طريق البحر المتوسط القديم .

وشبة الجزيرة الاسبانية من أشد أراضي اوروبا تحديداً . والبحث العام لِبُنيتها يبين أنها تتكون أساساً من هضبة وسطى فسيحة تشمل على الأقل نصف المساحة الإجمالية وهي « الميزيتا » بارتفاع متوسط قدره ١٩٣٥ قدماً ، وتشمل القشتالتين : قشتالة القديمة (Castilla la Vieja) وقشتالة الجديدة Castilla la Nueva والاستراما دوره Estramadura . وتكتنف الميزيتا منحدرات جبلية عالية ، والى الشمال سلسلة جبال كانتريا ، والى الشمال الشرقي والشرق سلسلة

الجبال الايبيرية ، والى الجنوب الصفوف المتابعة لجبال (شارات) مورينا (سلسلة الجبال البايتيكية الدنيا) والى الغرب هضاب جليقيــة (غاليسيــا) والبرتغال المـرتفعة . وتتميـز هذه الهضبة الـوسطى بوجود ثلاثة اغوار جانبيــة عميقة وهي اغوار إبْرَه ، والــوادي الكبير ، وتاجُه الأدنى . والى الجنوب نجد أن مرتفع « مجموعة الجبال البنيبايتيكية » قد لفظ كتلة جبلية تضم الجانب الاكبر من اندولوسيا العليا ، وتكون سلسلـة مختلطـة من الجبــال (سييّرا بالإسبـانية ، وبالعــربية الشارات) وأعلاها سلسلة نيفـادا (جبـل الشُّلَـيْر ، وأعلى قممها ، مولاي حسن : ١١,٤٢٠ قدماً) .

ونتيجة لهذا التكـوين الجبلي الملتوي لا يقلّ متوسط ارتفاع الأرض في شبه الجزيــرة عن ٢,١٦٠ قدماً ، فإذا أضفنا الى هذه الحقيقة ان نسبة الأراضي المنخفضة التي لا يقل ارتفاعها عن ١,٦٤٥ قدماً لا تزيـــد عن ٤٠ ٪ لتبينت لنا الصعوبات التي اكتنفت دائماً استغلال تربة قاحلة بوجه عام بسبب قلة سقوط الأمطار

وضعف موارد المياه من الأنهار في القسم الأكبر من البلاد .

٢ ـ المناخ : تتميز شبه الجزيرة بمناخ جاف معتدل بوجه عام على الرغم من التغيرات الشديدة التي تطرأ على درجة الحرارة في المناطق المرتفعة والمتوسطةالارتفاع التي هي بمنجاة من الأثر الملطف للمحيط الأطلسي او البحر المتوسط . وفصول الشتاء هنا قارصة البرد ، أما فصول الصيف فقائظة . وتستثنى من ذلك مناطق ما دون الساحل وبخاصة منخفض أندلوسيا الفسيح المكشوف المطل على البحر .

وبالنسبة لسقوط المطر يجب التمييز بين أسبانيا الجافة وأسبانيا المطيرة . وتشمل الأخيرة ، ابتداء من الشعبة الغربية لجبال البرانس ، إقليم الباسك (البشكونش) والساحل الكانتبري والبرتغال الحديثة كلها تقريباً . أما أسبانيا الجافة التي تشغل ما يقرب من ثلثي شبه الجزيرة فان سقوط المطر هناك في جوهره متقلب يتراوح بين متوسط سنوي قدره ٢٣ بوصة ،

وبين معدل يقل عن ١٥ بوصة . وفي كثير من الحالات يبطل البخر الآثار المفيــدة لسقوط المــطر ، وهناك لا يمكن ـ كما يحدث في المشرق (اقليــم بلنسيــة ومرسية) ـ علاج هذه الحالة بري الأراضي الجافة .

ويتمتع شمالي شبه الجزيرة وشمالها الغربي ، وجميع الشاطىء المطل على المحيـط الاطلسي عامة ، بطقس معتدل نسبيــاً نتيجة الـرطوبة وغلبة السحب وهما من خصائص هذا الأقليــم . وبالمثــل نجد ان فصول الشتاء ، في منطقة البحر المتوسط من قطالونيـا وشرقي الأندلس الى الساحل الاندلسي ، معتدلــة تتميــز بسطوع الشمس وبظروف جوية صافية مشرقة .

٣ ـ ماؤها : إن التكـوين الـطبيعي للبلاد ومناخها وطبيعة التربة التي كثيراً ما لا ينفذ فيها الماء تفسر نقص مياه شبه الجزيرة وعدم انتظام مواردها من انهارها التي تكاد تكون جافة دائما في أيام القيظ عندما يبلـغ البخر ذروته . وهذه الأنهار لها نفس الخصائص التي لوديان شمالي افريقية ، فهي تكون جافة كل الجفاف تقريباً أو

تغاديها فجأة أمطار غزيرة تجعلها سيـولاً تصاحبها آثار وبيلة تؤدي الى تعرية الأرض وازالتها بسبب الرواسب النهرية .

والأنهار التي تنساب تجاه الشمال والغرب ساحليـة بوجه عام لا يمتد طولها كثيراً ، وأهمها نهر منيـــو (بالبرتغالية منهو) الذي يكون الحد الشمالي للبرتغال ويصب مياهه في المحيط الأطلسي .

وهناك ثلاثة أنهار أخرى مواردها من الميـــاه غير منتظمة الى حد كبير وتصرف مياه الميزيتا وتنساب ايضاً الى المحيط الأطلسي ؛ وهي دُوَيْرُه Duero (بالبرتغالية Douro) ، ونهر تاجُه (Tajo بالأسبانيـــة و Tejo بالبرتغالية) ، ونهر آنا(Guadiana) وتكون مصباتها الحد الجنوبي بين أسبانيا والبرتغال . وأهم نهر في شبه الجزيرة هو الوادي الكبير Guadalquivir الذي ينبع من إحدى المجموعات الجبلية في جنوبي شرق الميـزيتا ، وله عدة روافد تزيد في حجمه ، أهمها شنيل الـذي ينبع من سييرا نيفادا (جبل شلير) وتغذيه في الصيف

الثلوج الذائبة من تلك الكتلة الجبلية . ونهر الوادي الكبير هو النهر الوحيد في شبه الجزيرة الذي يصلح مجراه الأدنى للملاحة (في الخمسة والسبعين ميلاً الأخيرة منه) . وتصل الى الساحل الشرقي عدة وديان لها طبيعة السيول الجارفة ، وهي تنبع من حافة الميزيتا وتمد المنطقة باحتياطي غير ثابت من الماء للري بوساطة السدود . وأهم هذه الوديان شقورة وشقر ، وهما يستخدمان اليوم لتحسين أراضي الري في بلنسية .

أما نهر إبْرُه الذي ينبجس في اقليم الباسك (البشكونش) فانه يستمد مياهه من منحدرات جبال البرانس الجنوبية (أراغون وشقره) وأثناء تدفقه عليها تقلل المنحدرات الرفيقة التدرج من حجم امواهه في اجزائه الدنيا فيتحول الى البحر المتوسط حيث يصب بعد عبور دالٍ غرينية كبيرة الحجم .

٤ ـ خصائص التربة : إن التربة التحتية لشبه الجزيرة غنية خاصة بطبقات حافلة بالمعادن ، فيها الرصاص والفضة والحديد والنحاس والمنجنيز

والرخام .

وهي غنيـــة أيضاً بالأملاح الطبيعيـــة مثل نترات البوتاسيوم والمغنسيـوم والسيلكـات ، وتتنوع النباتات تنوعاً تاماً بين أسبانيـا الجافة واسبانيـا المـطيرة ، ففي الأولى تغلـــب ثلاثة أنواع من النباتات كثيراً ما ترتبط بمنطقة البحر المتوسط ، وهي : الغابات (أشجار لا تتساقط أوراقها كل عام ، وأنواع مختلفة من أشجار الصنوبر والسنديان والفلين) وسفوح الجبال (مونت باخو بالأسبانيـــة)والسهوب (الأشجار الصغيرة Esparto) ؛ ومن جهة أخرى نجد أن الـــريف في اسبانيـا المطِيرة دائم الخضرة طوال العام نظراً لوجود الغابات والمراعي الطبيعية .

ونتيجة لهذا التنوع الطبيعي تعد أسبانيا بلداً يجتمع فيها أكبر قدر ممكن من المتناقضات ، ومن تحصيل الحاصل أن نقرر أن من المحتمل كثيراً أن تمر بلا تمهيد تقريباً من وادي نهر (Vega) وافر الخضرة الى سهب لفحته الشمس والريح .

ثالثاً - معالم الجغرافية التاريخية للأندلس

١ - أوصاف الأندلس : إن كتب الجغرافيين العرب (مشارقة ومغاربة) التي وصلت الينا هي عماد معلوماتنا عن الاندلس في العصور الوسطى وتطورها واستغلال مواردها الطبيعية . وهناك أولاً كتب المسالك التي نشرها دي غويه في المكتبة الجغرافية العربية (BGA) وهي لا تفرد إلا حيزاً محدودا لأسبانيا ، وأقدمها كتب ابن خرداذبة واليعقوبي وابن الفقيه وابن رسته ، وتشمل أوصافاً موجزة ايجازاً يحمل المرء على أن يفترض أن الأندلس كانت حتى القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) ولاية اسلامية غير معروفة إلا قليلاً للمشرق الاسلامي . ومنذ عودة الخلافة المروانية في قرطبة يصبح التوثيق

الجغرافي للأندلس منهجياً ، وإن ظل يفتقر الى البسط في شيء كثير من التفصيل . وتعني البيانات التي اوردها الأصطخرى المتوفى عام ٣٢٢ هـ (٩٣٤ م) عن الأندلس بالزراعة والتجارة ، وتصف أربعة عشر دليلاً للسفر في داخل شبه الجزيرة . وكان معاصره ابن حوقل افضل منه حظّاً ، فقد زار أسبانيا شخصيّاً وحصل على معلومات وثيقة مسايرة للعصر بالاستفهام ممن عندهم الخبر اليقين وهو في الطريق ، والحق ان صورة الأندلس التي كشف عنها قلم هذا الكاتب المناصر للفاطميين تتسم بالتحيز في كثير جدّاً من الأحوال ، ومع ذلك فهي أول وصف معقول وكامل مترابط في آن واحد وصل إلينا عن مملكة قرطبة . وجدير بالاهتمام كذلك البيان الذي ساقه المقدسي الفلسطيني (نهاية القرن العاشر) ، فهو يسوق أقوالاً هامة من الواضح أنها تقوم على ما استقاه من مصدر وثيق ـ على الرغم من أنه هو نفسه لم يقم بزيارة لشبه الجزيرة ـ تتناول بصفة خاصة الحياة الفكرية

واللغة وفن القياس والكيل والتجارة في البلاد .

ومنذ عهد الخلافة وفي القرون التالية نجد أن جميع الأوصاف التي كتبت أولاً في الغرب عن الأندلس تدين بالفضل للوصف الذي وضعه الإخباري القرطبي المشهور أحمد الرازي المتوفى عام ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) والمشرقي الأصل ، على رأس تاريخه الكبير عن الأندلس ، وهو الآن مفقود ، وقد رجع بعض الكتاب الى هذا المصدر يستشهدون به دون أن يقروا بذلك ، نخص بالذكر منهم ياقوت في كتابه معجم البلدان . ولا نعرف وصف الرازي إلا من نسخة قشتالية نشرها عام ١٨٥٢ كايانكوس P . de Gayangos واستقاها من نسخة برتغالية أنجزت حوالي مستهل القرن الرابع عشر بأمر دنيس ملك البرتغال (١٢٧٩ ـ ١٣٢٥ م) وقد ترجمها كاتب هذه المادة الى الفرنسية وحاول أن يستعيد أصلها العربي (في And . سنة ١٩٥٣ ، ص ٥١ ـ ١٠٨) .

وهكذا يتضح أن خطة « وصف » أحمد الرازي ،

قد اتخذت هيكلاً لمعظم الأوصاف التي تلتها على الرغم من أنها أجملت معالمها فحسب .

ومن مفاخر أهل الأندلس الوصف الذي قام به الأندلسي أبو عبيد البكري المتوفى عام ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) والذي فُقد لسوء الحظ وإن كان يمكن استعادته الى حد كبير من الملاحظات عن الأندلس التي وردت في كتاب الروض المعطار للمصنف المغربي ابن عبد المنعم الحميري وهو من أعيان القرن السابع الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي) وقد أفاد الحميري أيضاً من مادة كتاب الشريف الادريسي . ويجب أن يضاف الى هذه القائمة ـ علاوة على مجموعات عجائب المخلوقات الخاصة بالأندلس التي تضمنها كتابا القزويني والدمشقي ـ التعليقات التي جمعها المفري المغربي (القرن السابع عشر) في المجلد الأول من كتابه « نفح الطيب » وهذه التعليقات تستفيض في بعض الأحيان استفاضة كبيرة .

٢ ـ جغرافية الأندلس الطبيعية طبقاً للرواية

الجغرافية الاسلامية : يذهب الرازي الى أن الأندلس هي طرف الأقليم الـرابع تجاه الغرب ، وأنها صقع ترويه غالباً أنهار عديـدة وينابيع عذبة . وبعد هذا التصريـح يشرع الجغرافيـون عادة في كيل عبارات التقريظ ويفردون حيـزاً كبيراً للفضائل الاسبانيـة على طريقة إيزيدور الأشبيلي .

والأندلس مثلثة الشكل ، وكل زاويـة من هذا المثلـث تطابق مكـاناً مشهوراً في روايـات الأسطورة الأسبانية . ويقوم معبد قادس « صنم قادس » (انظر هذه المادة) في رأس الزاوية عند الجنوب الغربي ، أما الزاوية الثانيـة فتقع على خط عرض جزر البليـار بين نربونة وبوردو (كـذا) ، والزاويـة الثالثة في الشمال الغربي تطابق برج هرقل Torre de Hercules قرب قورنية . وهذه الآراء توضحها بعض التوضيـح أيضاً خرائط كتابي المسالك لابن حوقل والادريسي . وقد فطن الرازي بوضوح الى احدى الخصائص التي تتميز بها البنية الطبيعيـة لشبه الجزيـرة : وهو يرى وجوب

التمييز بين أسبانيا الغربية وأسبانيا الشرقيـة واضعاً في الاعتبار الفروق في اتجاه الرياح وسقوط المطر ومجرى الأنهار . ففي أسبانيا الغربية تنساب الأنهار نحو المحيط الأطلسي وتحمل الرياح الغربية المطر إليها . ويصدق العكس على أسبانيا الشرقية حيث تسود الرياح الشرقية وتتدفق الأنهار نحو الشرق .

وكثيراً ما ترد معالـم أخرى للدلالة على بعض مواقع « المثلث » الذي تكونه الأندلس ، وهي رأس سانت فنسنت في الطرف الجنوبي الغربي للبرتغال ، ويسمى بالعربية « كنيسة الغراب » وهيكل الزهرة في الطرف المقابل (Port — Vendres).

وعند الاقتراب من الأندلس من جهة قارة اوروبا أو غاليش أو الأرض الكبيرة ، يجب ان يعبر المرء جبال البرانس باجتياز باب أو أبواب أخرى أو « بُرْتات » للوصول إلى أرض الغَسْقُونيين (البشكونش) أو الى أرض الأفرنج . ويمكن من هناك بلوغ شواطىء الأطلسي الذي يسمى بحر الظلمات أو البحر الأخضر

أو البحر المحيط . وقد اقتحم هذا المحيط الخطر عدد من الملاحين المجازفين واشتغلوا بالتجارة الساحلية من أرض السود وجزر الكنار أو « الجزر الخالدات » حتى حدود بريطانية .٠ويعرف البحر المتوسط باسم « البحر الـكبير » و « البحر المتوسط » أو « بحر تيران » Tyrrhenian Sea

وفي رأي الـرازي انه لا توجد الا ثلاث سلاسل جبلية في أسبانيا تخترق شبه الجزيرة من بحر الى آخر ولا تقطع واحدة منها نهراً . وأولى هذه السلاسل هي سيرا مورينا ، وتسمى جبال قرطبة ، وهي ترتفع من ساحل البحر المتوسط في الشرق وتنتهي في الغرب على المحيط الأطلسي . والثانية هي سلسلـة جبال البرانس بين نربونة وجليقية . والثالثة تقطع أسبانيـا بانحراف من طرطوشة الى لشبونة ، وهي تطابق سلسلة الجبال المستعرضة المسماة الشارات ، كما جاء في كتاب الادريسي . ومهما يكن من أمر فان الجغرافي يجد لزاماً عليه أن يذكر علاوة على هذا سييرا نيفادا (جبل شلير

Mons Solarius) وسرانيا المالقية (جبل رَيُّه) الذي يمتد الى الجزيرة الخضراء Algeciras .

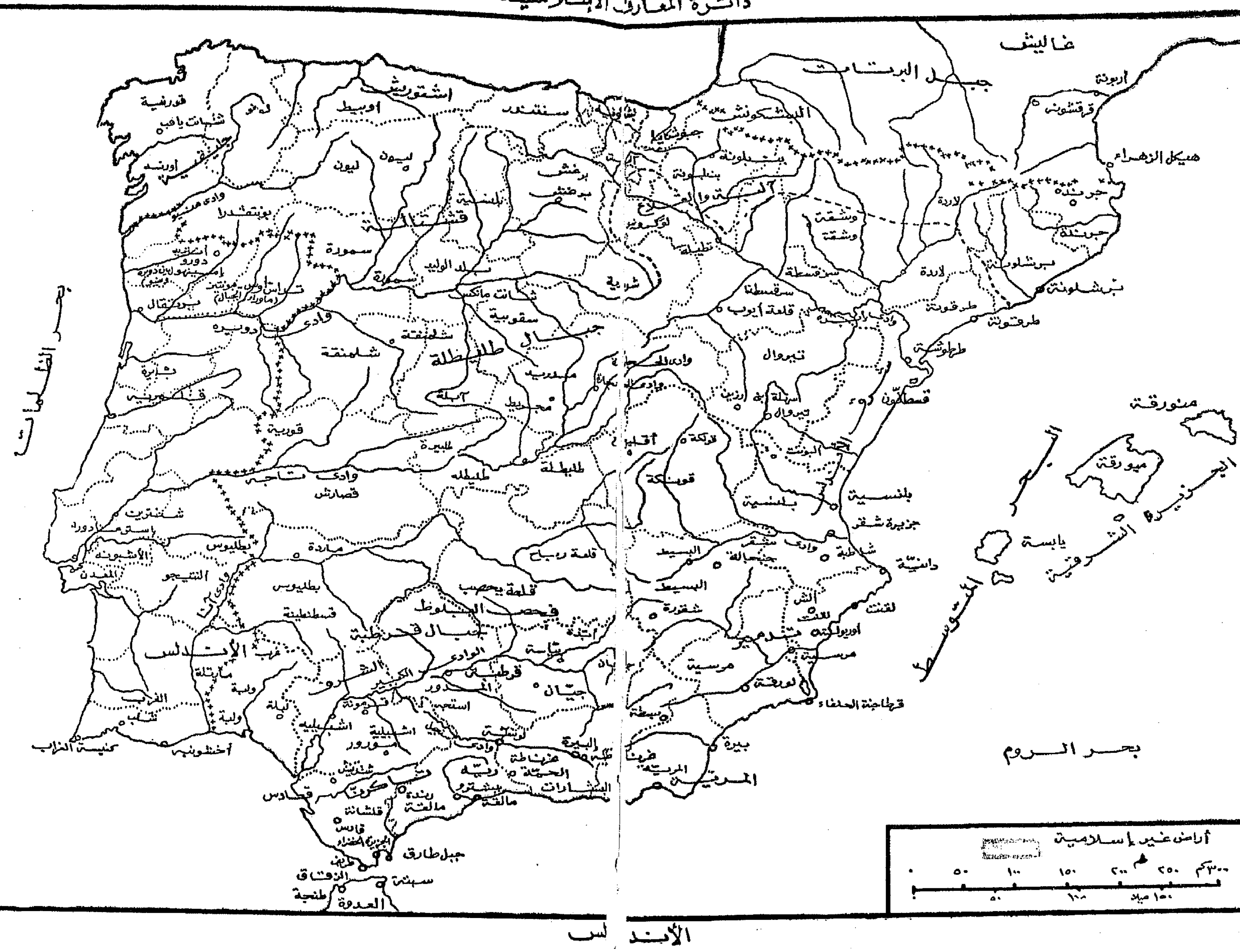
وأهم نهر في الاندلس هو نهر الوادي الكبير المعروف أيضاً باسم النهر الأعظم ، ونهر قرطبة ، ويشار اليه أحياناً باسمه القديم نهر بيطي (Beatis) ويبلغ طوله ٣١٠ أميال ، وهو نهر بايتيكا أخصب جزء في شبه الجزيرة ، ويروي قرطبة وإشبيلية ، وأهم روافده هو وادي سنجيل أو شنيل الذي ينساب مخترقاً غرناطة ولوشة وإستجة ، ووادي شوش ، والوادي الأحمر . وقد أطلق عليه هذا الاسم بسبب لون مياهه الضارب الى الحمرة ، ووادي بُلُّون .

ويبلغ طول نهر وادي آنا في جملته ٣٢٠ ميلاً ، وهو ينبع من نقطة لا تبعد عن منبع نهر الوادي الكبير ، ويسير جانب من مجراه تحت الأرض ثم يظهر من جديد في منطقة قلعة رَباح ، ويصب في المحيط الأطلسي عند أخشونبة .

وينبع وادي تاجُه من جبال طليطلة ، ويقطع من مجراه ٥٨٠ ميلاً ثم يصب في المحيط الأطلسي عند لشبونة . والى الشمال منه أيضاً يجري وادي دويره ، وطوله ٧٨٠ ميلاً ، وتغذيه بضعة روافد ، ثم يصب في المحيط الأطلسي عند أوبورتو (برتقال) . وهناك نهر مهم آخر يصب في المحيط الأطلسي وهو نهر منيو (منهو بالبرتغالية) الذي يخترق جليقية من الشرق الى الغرب ويبلغ طوله ٣٠٠ ميل .

ولا يذكر الرازي من الأنهار التي تصب في البحر المتوسط إلا نهر وادي شقورة الذي ينبع قرب منابع الوادي الكبير ونهر إبره (Rio Ebro) . وينبع الأخير عند فنتنبرةFontibre , في قشتالة العليا ، ثم يبلغ أخيراً البحر غير بعيد من طرطوشة قاطعاً مسافة قدرها ٢٠٤ أميال . ولنهر إبره روافد عديدة منها نهر جلّق الذي ينحدر من جبال السيرطانيين .

٣ ـ الأسماء الاصطلاحية للأقسام الحضرية والأقليمية في الأندلس :


غاليش
جبل البرتات
أربونة
قرقشونة
هيكل الزهراء
جرندة
برشلونة
طركونة
طرطوشة
لاردة
وشقة
سرقسطة
قلعة أيوب
تطيلة
بنبلونة
منورقة
ميورقة
يابسة
البحر المتوسط
الجزيرة الشرقية
بلنسية
جزيرة شقر
شاطبة
دانية
لقنت
مرسية
لورقة
قرطاجنة الحلفاء
بحر الروم
المرية
بيرة
قونكة
قلعة رباح
فحص البلوط
جبال قرطبة
قرطبة
جيان
غرناطة
رية
مالقة
اشبيلية
شريش
قادس
جبل طارق
سبتة
الزقاق
طنجة
العدوة
غرب الأندلس
شلب
أكشونبة
بطليوس
ماردة
قصارش
شنترين
الأشبونة
وادي تاجه
طليطلة
طلبيرة
مجريط
قورية
شلمنقة
سمورة
ليون
قشتالة
اشتوريش
جليقية
بحر الظلمات
أراضي غير إسلامية
٣٠٠كم ٢٥٠ ٢٠٠ ١٥٠ ١٠٠ ٥٠ ٠
١٥٠ ميلا ١٠٠ ٥٠

الأندلس

الأندلس مشهورة ، في جميع عهود تاريخها الاسلامي ، بعدد مراكـزها الحضريـة ، وهي بهذا تتباين مع الفقر النسبي في شمالي افريقيـة فيما يختص بالمناطق السكانية المعادلة لها في الأهمية . وقد بقيت كل المدن الرومانية تقريباً بعد الفتح العربي واستمرت في الازدهار . ومن جهة أخرى فإن المدن الجديدة التي أسسها الفاتحون لم تكن كثيرة ، وكانت تشيد دائماً ـ أو تكاد ـ لأسباب استراتيجية أو لتكون قواعد ساحلية يقصد بها الحد من المطامع العدوانيـة للفاطميـين في غربي البحر المتوسط ، فنجد ، مثلاً ، أن مرسية قد حلت محل مدينة اللوElloالقديمة ، وأن المرِية كانت في مبدأ الأمر مجرد مركز ساحلي لرصد حركـات العدو قبل ان تتطور في القرن العاشر وتصبح محطة بحريـة ودار صناعة . وفي معظم الحالات بقيـت الأسماء اللاتينية القديمة للأماكن في الواقع دون أن تمس ، مثال ذلك أن كردوبا أصبحت قرطبة ، وهسبالي أصبحت إشبيليـة ، وقيصر أوغسطا أصبحت سرَقُسْطة ،

وفالنسيـــا أصبحت بلنسيـــة ، أو اتخذت في غير ذلك صيغة التصغير ، ومثال ذلك أن توليتوم Toletum , أصبحت طليطلة . وقد كانت أسماء الأماكن التي لها أهميـة تاريخيـة توريـــات في الأصل ، مثال ذلك أن أوسيلي Ocili أصبحت مدينة سالـم Medinacelli التي تسببت في الـــوجود الأسطوري لمؤسس موهوم يدعى سالمـاً . أما المـــدن التي أطلقت عليها أسماء عربيـــة وصفيـــة فكـــانت هي الاستثناء من القاعدة ، مثل الجزيـرة الخضراء Algeciras . وحملـــت بعض الأماكن اسم القبيلـة العربيـــة او البربريـــة التي سكنتها بعد الفتح : مثل بلي (Poley) وغافق شمال قرطبة ، ومكناسة(Mequinenza) في أراغون .

وثمة عدة أماكن في شرقي الأندلس اتخذت أسماء كانت تطلـــق على « محطات » واقترنت باسم عربي خاص ، وهذا يدل على عمق ما لحقها من تأثير عربي ، مثل : منزل عَطَاء (Mislata) ومنزل نصر (Masanasa) في ضواحي بلنسية ، وصيغت أسماء

كثير من الأماكن في اقليم بلنسية على غرار أسماء قبائل باضافة كلمة بني الى اسم الجد الأكبر (انظر Lévi — Provençal , Hist . Esp . Mus . , جـ ٣ ، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٨) ، وفي العصر الذي كتب فيه أحمد الرازي وصفه للأندلس كانت الأندلس ـ أي أسبانيا الاسلامية ـ يفصلها عن أسبانيا المسيحية خط من الحدود يعد منطقة حرام ، تحدها من الجوانب على طول حدودها ثلاثة ثغور : الأعلى والأوسط والأدنى .

وكان كثير من المناطق في شبه الجزيرة قد فصل بالفعل في نهاية الأمر عن الأندلس منذ أخليت تحت ضغط البوادر الأولى لإعادة الغزو المسيحي ، مثل الثغر الأسباني في الشرق ، وإقليم الباسك في الوسط ، والساحل الكانتبري في الغرب . ولم تكن الحملة الشهيرة التي شنها المنصور العامري على شنت ياقب (Santiago de Compostela) إلا غارة قصد بها مجرد الاستعراض دون ان يكون لها أثر حاسم . ومن ثم فقد العالم الاسلامي نهائياً إبّان عهد الخلافة جزءاً من

أسبانيا ، ولم يسع الى استعادته . ومهما يكن من أمر فإن التنظيم الإقليمي للأندلس ظل كما هو ولم يتغير .

ويرجع تاريخ هذا التنظيم الى القرن الثامن الميلادي ، ولذلك كان سابقاً على استعادة المروانيين للخلافة . وكا يقوم على كوَر لكل منها قصبة وحاكم وحامية . وتختلف قوائم الكوَر في عهد الخلافة اختلافاً كبيراً ، ويورد المقدسي بياناً غير كامل يضم ١٨ اسماً فقط ، أما ياقوت فيحصي منها ٤١ ، وهو رقم يقارب الرقم الذي ذكره الرازي الذي يصف ٣٧ كورة على التوالي . وأورد الادريسي فيما بعد تقسيماً لا يقوم على كوَر ، ولكن على « الأقاليم » التي ليس لها مدلول إداري ، وقدم اسماء كثيرة لا بد أن نُنكرها في حزم باعتبارها منحولة ، وبالاستفادة من المعلومات التي اوردها الرازي الذي انتهج نظاماً يتمركز حول العاصمة ، والمعلومات التي ذكرها البكري ، يمكن بسهولة تحديد المعالم الرئيسية لكل كورة هامة في التنظيم الاقليمي على عهد الخلافة ، وكان يطلق على

الكورة عادة الاسم نفسه الذي يطلـق على قصبتها فيما عدا بعض استثناءات لوحظت فيما يلي : كانت أهم كورة هي كورة قرطبة وتحدها من الشمال كورة فحص البلوط(Liano de los Pedroches أي « هضبة البلوط ») وكان أهم موضع فيها غافق(ولا شك في انهابلالكازار الحديثة Belalcazar) وعلى الجانب الاخر من سهل قرطبة الغريني (القنبانيـة ، لاكامبينيـا الحديثة (La Campiua) والى الجنوب من الـوادي الـكبير تقع الكـوَر الصغيرة : قبرة ، وإسْتِجَّة . وبعدها غرباً كانت تقوم أقاليم قرمونه وإشبيلية ولبلـه الغنيـة . أما كورة اخشونبة وقصبتها شِلْـب فكـانت تطابق الغرب (غرب الأندلس - أي الحد الجنوبي للبرتغال الحديثة - على المحيـط الاطلسي) . وتقع شمالي هذا الاقليـم كورة باجة . وكـان الجزء الـواقع في اقصى الجنوب من الأندلس منقسماً الى أربع كوَر : مَورور ، وشَذُونَة ، والقصبة قَلْشانَة ، والجزيـرة الخضراء وتاكُرُّنا ، والقصبة رُندَة وبعدها شرقاً كورة مالقَة التي

كانت تسمى ريه ، وكانت قصبتها أُرْجُذُونَة ، وكانت متاخمة لكورة إلبيرة وهي (Iliberris سابقاً) ، وتقع الى الغرب قليلاً من غرناطة الحديثة . وكانت كورة إلبيرة تتاخم كورتَي جيان وبَجّانَة ، وقد نقلت قصبتها الى المرية في عهد الحكم الثاني .

وكان شرقي الأندلس على البحر المتوسط مقسماً من الجنوب الى الشمال الى ثلاث كوَر كبرى : تُدْمِير ، وهي المملكة القديمة للأمير تيودمير القوطي وقصبتها ، وشاطِبَّة وبَلَنْسِية اللتين كانتا تمتدان حتى دال وادي إبره . أما في داخل البلاد فيما وراء سلسلة جبال قرطبة (سييرا مورينا) فكانت منطقة طليطلة تكون كورة امتدت شرقاً بضم كورة شنتبرية وقصبتها أُقليج . والراجح أن جزائر البليار (الجزائر الشرقية) كانت في عهد الخلافة كورة منفصلة . وفي النصف الغربي من الأندلس ينطبق هذا الذي ذكرناه على الأقاليم التي كانت قد استتب فيها الأمن حديثاً مثل مارِدَة ، وبَطَلْيَوْس ، وشنترين ولشبونة (الأشبونة) وربما

قُلُمْرِيَة .

وكـانت تسع كوَر منها تعرف « بالْمُجَنَّدة » لا تزال تتمتع بمركز ممتاز في عهد الخلافة لأن أراضيها أقطعها الأمير ابو الخَطّار الـكلبي عام ١٢٥ هـ (٧٤٢ م) للجند الشآميـة الـذين استقدمهم القائد بَلْـج بن بشر (انظر هذه المادة) الى الأندلس ، وكانت هذه الكورة هي كورة إلبيرة ، وقد أقطعت للجند الدمشقيـين ، وريه التي أقطعت لجند الأردن ، وشَذونة التي أقطعت لجند فلسطين ، ولبلَـة وإشبيلِيـة وقد أقطعتا لجند حمص ، وجَيَّـان التي أقطعت لجند قِنَّسْرين ، وباجة وأخشونبة ، ومرسيَة أيضاً ، لجند مصر .

وأورد الـرازي عدداً من الكـور المتطرفة في اقليـم الثغور العليـا : طَرَّكُـونَة المتاخمة للاردَة وبربطانيـة ومعقلها بربشترو ، ووَشْقَة وتُطيلَة ، ومدنها المحصنة في طرسونَة وأرنوط وقلهرة وناجِرَة .

رابعاً - سكان الأندلس

إن عدم وجود احصاءات يعتمد عليها وصمْت الجغرافيين يعوقان القيام باي تقدير ، ولو كان نسبياً ، لعدد سكان الاندلس في العهد الذي امتدت فيه رقعتها الجغرافية الى أقصى حد ، أي في نهايـة القرن العاشر الميلادي . وإذا أخذ المرء بالتقدير القائم على الحدس والتخمين بأن تعداد السكان كان حوالي عشرة ملايين في عهد القوط الغربيين قبيل الفتح العربي ، فانه ظل بلا ريـب كما هو على وجه التقريـب بسبب قلـة عدد المسلمين المهاجرين من أجناس أخرى مع ترجيح زيادة نسبة سكان الحضر والقرى عن العناصر الريفية . ومن جهة اخرى يمكن إضفاء أهمية اكبر على الفرض الذي يذهب الى أن توزيع السكـان على مختلف مناطق شبه

الجزيرة كانت تمليه دائماً البيئة الطبيعية ، وأن كثافة السكان في أية منطقة معينة كانت تتوقف على ارتفاع الاقليم وطبيعته وعلى المناخ وخصوبة التربة وإمكان ريِّها . ولا يعد من قبيل المبالغة ان نقول على سبيل التخمين ان أقاليم الأندلس التي يقيم فيها اليوم أقل عدد من السكان كانت على نفس هذا الوضع في عهد خلافة قرطبة .

ومن بين العناصر المكونة لسكان الأندلس المسلمين يجب التمييز بين جماعة المسلمين الجدد ـ أي الأسبانيين الذين اعتنقوا الاسلام بعد الفتح نتيجة لتحولهم عن دينهم القديم على تفاوتهم في المبادرة الى ذلك ـ وبين العناصر التي تنتمي الى أجناس أخرى . ومن بين هذه العناصر الأخيرة التي توطنت في البلاد نتيجة لموجات المهاجرين المتتابعة وإن كانت قليلة العدد ، يبدو أن عنصر البربر كان أهمها جميعاً ، والظاهر أن البربر لم يأتوا من جميع بلاد البربر ، ولكنهم جاءوا من أقاليم المغرب الدانية من الأندلس ، وهي جبل مراكش

والريف . وأما البربر الذين جاءوا من الجانب الآخر لمضيق جبل طارق عندما كانت الظروف السياسية والاقتصادية مواتية لا تضطرهم الى العودة الى بلادهم الأصلية على جناح السرعة ، فقد دفعهم الى الأراضي الجبلية المهاجرون العرب الذين تألفت منهم الطبقة الأرستقراطية لكي ينعموا وحدهم دون سواهم بحق التحكم في أخصب البقاع بالأرض الأندلسية . وقد يُظن ـ استناداً الى بعض المعلومات التي أوردها كتّاب مثل ابن حزم ، وخاصة في كتابه الجمهرة ـ أن مستعمرات البربر لم تشغل الا بعض أراض متفرقة من المنطقة الساحلية ، وأنهم اضطروا الى الاستقرار في الميزيتا . وما ان توطدت أقدامهم حتى استعرب هؤلاء البربر الأندلسيون الى حد أنهم انصرفوا عن استخدام لهجاتهم الأصلية . وظل الأمر كذلك حتى نهاية القرن العاشر الميلادي ، وهناك حدث تدفق جموع أخرى من الجند من جراء تجنيد المرتزقة من البربر على نطاق واسع في المغرب الأوسط والشرقي ، ومن ثم

دخل الى الأندلس جماعة من أهالي شمالي افريقية عجلوا بتقويض بناء الخلافة وتجمعوا جماعات سلالية كونت في القرن التالي طائفة البربر التي تقابل طائفة الأندلسيين .

والعنصر العربي في الأندلس لم يكن قط إلا أقلية . أما الأغلبية فقد دخلت البلاد إما في عهد الفتح أو في خلال السنوات التالية ، وازدادت قوة فيا بعد بعناصر طارئة من الجند الشآميين وبالمهاجرين الذين أقبلوا زرافات من آسية في عهد استعادة المروانيين للخلافة في الأندلس . ولعل العرب كانوا اصلاً لا يتجاوزون بضعة آلاف قبل زواجهم من النساء الوطنيات ، وقد انتج نظام « الولاء » عدداً لا يستهان به من الناس الذين ادّعوا ، خطأً أو صواباً ، أنهم من أصل عربي . ومن المسلّم به على أية حال أن العرب كانوا يمثلون عنصراً عدوانيّاً مشاغباً في القرون الأولى من تاريخ الأندلس ، وأنهم قد احتفظوا لأنفسهم بأجود الأراضي على الرغم من احتقارهم للعمل في فلاحة

الأرض ، وتركــوا للمستعمرين المشاركــين لهم في المحصول مهمة فلاحة الأرض ، وكانوا يؤدون لهم أجورهم نصيباً من المحاصيل يتفق وما عملوا .

وهناك عنصر ثالث دخيل على المجتمع الأندلسي لا مفر من الإشارة إليه هنا على الرغم من انه لم يكن إلا نسبة ضئيلـة الى حد ما من السكــان ، وهذا العنصر يضم العبيــد والصقالبة . فالعبيــد الــذين جلبهم النخاسون من السودان الى أسبانيا لم يكونوا في النهاية حرساً من المرتزقة يتزايد عددهم باطّراد فحسب ، بل هم قد امتزجوا أيضاً بباقي سكان المدن نتيجة الزواج من نساء العبيـد الــلائي حظين بتقديــر خاص وكن مطلـوبات من الـرجال بسبب ما يمتزن به من فضائل ومهارة في الشؤ ون المنزليــة . ومن جهة أخرى فإن الصقالبة (أنظر هذه المادة) ـ الذين كانوا من الأسرى في القارة الأوروبية ، من ألمانيا الى بلاد الصقالبة ، أو كانوا من الأسرى الــذين اعتقلــوا أثناء حملات « الصائفة » على حدود الأندلس إبّان العهد الثاني من

الخلافة ـ قد أصبحوا ، بصفة خاصة في قرطبة ، طائفة كبيرة العدد نشيطة كان لها وزنها الكبير في اقتصاد الدولة القرطبية ، كما أسهموا الى حد كبير في انهيارها السريع .

وعلى الـرغم من أن البربر والعرب والعناصر الإسلامية الأجنبية الأخرى كان لهم شأن كبير ، فإنهم كانوا أقل عدداً بكثير من جماعة المسلمين الجدد الأسبان الذين كانوا أعظم منهم شأناً والذين عرفوا في الأندلس باسمَي جنس هما « المُسالِمَة » أو « المولّدون » بنوع خاص • وهؤلاء هم الأسبانيون الذين اعتنقوا الاسلام بعد الفتح لكي يتمتعوا بمركز شخصي أفضل من مركز الذمّي . وهذا الاستعراب الكامل السريع لكل من دخلوا في الاسلام ، الذين أظهروا في أغلب الأحوال إخلاصاً عظيماً صادقاً له ، يعد ظاهرة ملفتة للنظر . وفي خلال فترة قصيرة اندمج المولدون في جتمع الإسلامي، وأتاحوا لحكام البلاد بحسن تغلالهم لخدماتهم أن يرأبوا الصدع الناتج من نقص

المهاجرين من قدامى المسلمين . وسرعان ما انصهر كثير من المولدين في بوتقة المجتمع الأندلسي ، بل هم قد نسوا أصلهم الأسباني (الايبيري أو القوطي) على الرغم من انهم كانوا يحملون في كثير من الأحوال أسماء أعجمية . وأدى التعايش في ظل الاسلام بين العناصر المختلفة الأصول من السكـان الى اندماجهم بالتدريـج ، وهي عمليـة ساعد عليها انتهاج سبيل واحد ، وإيقاع واحد في الحياة ، وازدواج اللغة الذي وضع ـ على الأقل ـ اللغة العربية الأندلسية والعجمية في الحياة اليومية على قدم المساواة .

وانقسم سكـان الأندلس المسلمون ـ الـذين كانوا يتألفون من عناصر متعددة الأصول وإن كانوا قد أصبحوا بالتدريج متجانسين نسبياً ـ الى عدد معين من الطبقات الاجتماعية على غرار ما حدث في بقية العالم الاسلامي : طبقة خاصة ، وطبقة عامة . وتضم الأولى الأسر النبيلة الكبرى التي كثيراً ما كانت ألقابها تُمنح لها بالوراثة ، بينما كانت الطبقة الوسطى تتألف من

التجار وملاّك الأراضي الصغار ،وسرعان ما أصبحت نوعاً من البورجوازية المدنية ، وإن كانت بدون مواثيق أو حصانات . وعلى النقيض كانت العامة في المدن وبخاصة في الريف جمهوراً يتعرض للمضايقات الشديدة من السلطة . ولما كانت تعوزنا في الواقع معلومات عن القانون الزراعي الذي كان سارياً في الأندلس ، فإننا مضطرون الى أن نفترض وجوداً لم يكن منه بد لطبقة من الدهماء في الريف ، تتألف من عَمَلة المياوَمة الذين ارتبطوا بالأرض وعاشوا حياة تعسة ، ولا يستطيعون في الغالب التخلص من حالة الاستعباد التي كانوا عليها .

وكان المعاهدون في المجتمع الأندلسي يؤلفون جزءاً مهماً من السكان يضم المسيحيين واليهود على السواء . وكان الأولون يتجمعون عادة في طائفة تعرف باسم المستعربين Mozarabes ، وكلهم ينتمون الى ذلك الجزء من السكان الأسبان الذين رفضوا أن يتخلوا عن عقيدتهم وقت الفتح ليعتنقوا دين الفاتحين . وكانت

طوائف المستعربين في المــدن الــكبيرة على الأقل ، وبخاصة قرطبة وإشبيلية وطليطلـة ، تخضع لنظام في حماية السلطة الإسلامية المركزية وتحت إشرافها ، وكان لها زعيــم مسؤ ول أمام تلك السلــطة هو القومس ، وكان يطلق عليه أحياناً اسم المدافع أو الحامي ، يمارس سلــطات مأمور الشرطة على طائفته ، وكـــان منوطاً بجباية الضرائب مسؤ ولاً عنها يعاونـه قاضٍ خاص هو « قاضي العجم » أو الرقيب عليهم ، يفض المنازعات بين المستعربين. وظلت أرض الأنـدلس حتـى نهاية القرن الحادي عشر الميـلادي مقسمة الى نفس المناطق الكنسية ، كما كان الأمر في عهد القوط الغربيين ، أي الى ثلاث مطرانيـات : (طليطلـــة ، ولوزيتانيـــا ، وبايتيكا) على رأس كل منها كبير أساقفة ، ولكل منها أسقفية وعدة أبرشيات .

وقد حفظ لنا البكري التفصيلات فيا يسميه « قسمة قسطنطين » وبقيـت لنا أسماء بضعة أعيـــان من أندر أقطاب الكنيسة في الأندلس على عهد الخلافة . وطائفة

المستعربين بقرطبة هي التي يتوافر لنا عنها أكبر قدر من المعلومات ، وإن كانت هذه الطائفة ليست أهم الطوائف من الناحية العددية .

ومعلوماتنا أقل عن عدد جماعات اليهود ونشاطهم في مدن الأندلس التي كان بكل منها حي لليهود (حارة أو مدينة اليهود ، وبالأسبانية Juderia) . وفي الوقت نفسه نجد في القرن الحادي عشر وبخاصة في المملكة الزيرية بغرناطة ،أن الدور الذي لعبه مأمور والضرائب والصرافون اليهود ، وأهمهم عائلة بني النَّغْرَلاّ ، وقتل الآمنين من المواطنين بلا حساب في غرناطة على أثر اغتيال ولي العهد الأمير بلكين بن باديس بن حبوس ابن زيري ، وما نسب للطائفة اليهودية الكبيرة التي كانت هي الجزء الأكبر من السكان في مدينة أليُسَّانة من فضل في اقتصاد دولة غرناطة الصغيرة ، كل أولئك قد أدى الى الاعتقاد بأن يهود الأندلس في كل مراحل إعادة الغزو ، سواء في خدمة المسلمين أو المسيحيين ، قد قاموا بدور نشيط في البلاد بصفتهم مستشارين

وسفراء ، وأنهم كانوا يتحكمون في أسباب التجارة بين الأندلس والقارة الأوربيـــة من جهة ، وبين المشرق الاسلامي من جهة اخرى . وقد يُنتظر الكثير في هذا الصدد من دراسة الوثائق التي تيسر الحصول عليها من خزانة كنيسة اليهود في القاهرة ،

خامساً - تطور الأندلس

كــان الجغرافيــون هم الــذين زودونا في الأصل بمعلومات تتفاوت في تفصيلها عن الطريقة التي كانت تزرع بها أرض الأندلس وتستغل بها مواردها النباتيــة والمعدنيــة . كما أن بين أيــدينا مراجع اصطلاحيــة مستفيضة الى حد لا بأس به تتمثل في مصنفات في علم الزراعة من عصور مختلفة وبخاصة كتب التِغْنَرى وابن وافد وابن بَصّال وابن ليون وابن العوّام . ويجب علينا أن نذكر « التقويم القرطبي لعام ٩٦١ م » الذي نشره دوزيDozy عام ١٨٣٧ على اعتبار أنها في الوقت نفسه نسخة متأخرة بلا شك نسبت الى المؤرخ القرطبي عريب بن سعد (أنظر هذه المادة)ومن سوء الطالع أن هذه المصادر الاصطلاحية لا تزودنا في الواقع بمعلومات

عن طرق الــزراعة وعن عقود الايجار ، وإن كانت بعض كتب الفقه تزودنا عن هذه المسائل بمعلــومات غامضة كل الغموض لا يمكن الاعتماد عليها تماماً .

١ ـ الزراعة : وقد كان ثمة تفرقة ، كما هي الحال في أسبانيــا اليــوم ، بين الأرض الجافة (secano بالأسبانيــة = بعل بالعربيــة) والأرض المرويــة (regadio بالأسبانية = سقي بالعربية) فالأولى كانت تخصص لزراعة الحبوب . ونظراً لقلة خصوبة الأرض والظروف المناخية غير المواتية فان زراعة الحبوب كانت عاجزة كل العجز عن أن تمد السكــان بحاجتهم من القمح والحبوب الأخرى التي تستخدم في صنع الخبز ، ونتيجة لذلك كانت الأندلس ، في بعض فترات القحط ، تعتمد على واردات القمح من شمالي إفريقيــة . وكــانت بعض أنواع القمح الأندلسي (طليطلــة)تحظى بشهرة خاصة . وقد استخدم الـطحانون طواحين تدار بالخيـول أو طواحين مائيــة (رَحى) .

وكـانت هناك مساحات شاسعة من البلاد ، وبخاصة في اندولوسيا وإقليم الشرف تغطيها أشجار الـزيتون ، وكـان صناعة زيـت الـزيتون دائماً رائجة هناك . وكـانت طرق استخلاصه بدائيـة ، بيـد أن كميات الزيت المنتجة كانت تزيد أحيـاناً عن حاجات الناس هناك ، فيصدر الفائض منه الى بقيـة أنحاء العالم الإسلامي .

ويبدو أن زراعة الكـروم ، مثل سائر أشكـال الـزراعة البعليـة ، كانت تمارس على نطاق واسع . وكـانت الأعناب تستخدم في الـطَّهي ، وكـانت السلطات فوق ذلك تسمح في الواقع بشرب النبيذ ، وكان بيعه منظَّماً .

ومهما يكن من أمر فإن الأندلسيين سرعان ما حققوا لأنفسهم تفوقاً لا نظير له في مجال المحاصيل التي تحتاج الى ري مناسب ، على الرغم من أنه لا يمكن أن ينسب اليهم فضل اختراع نظام الـري الـذي استخدموه ، وخاصة في شرقي الأندلسي ، والذي لا يزال قائماً دون

أن يلحقه تعديل جوهري . وأبسط شكل للـري هو ذلك الـذي يتم بمساعدة شبكة من قنوات الـري (ساقيـة ، وبالأسبانيـة acequia) التي تتشابك في السهول الساحلية في إقليمي مُرْسِيَة وبلنسيـة والتي يعتمد تدفق المياه فيها تماماً على الاختلافات في مستوى الارتفاع . وكـانت حقوق المـاء يحددها العرف طبقاً لشريعة لها طبيعة أبوية ، ولا تزال سارية حتى اليوم . ولم يكن من الميسور القيام بالـري في الأراضي الأكثر ارتفاعاً ، وفي وديان الأنهار مثل وادي آنا ووادي تاجُه ووادي إبْرُه ، إلا بمساعدة آلات رفع المـاء التي كانت تسمى بحسب طرازها ووظيفتها باسم « ناعورة » (noria بالأسبانيـة والفرنسيـة) أو سانِيـة (acena بالأسبانية) .

وكان هذا الـري يستخدم في زراعة الخضر وغرس الأشجار ، ويتبارى الجغرافيـون في الإشادة بفواكـه الأندلس : الكـرز والتفاح والكُمَّثـرى واللـوز والـرمان ، وخصوصاً التين الـذي اشتهرت منه أنواع

عديدة في أسبانيا . وفي بعض المناطق الساحلية الضيقة المستورة ستراً يفوق العادة ، كان من الممكن تنمية محاصيل من النوع الذي يزرع في المناطق الحارة مثل : قصب السكر والموز ، وكانت آحراج النخيل في (ألش) من المناظر المألوفة في البلاد .

وأخيراً فإن زراعة الأعشاب العطرية والنباتات التي تدخل في صناعة الأقمشة كانت تتم أيضاً على نطاق كبير ، مثل الزعفران والعصفر والكمون والكزبرة والفوّة والحناء من جهة ، والكتان والقطن من جهة أخرى . وازدهرت تربية دودة القز ، وبخاصة في المنطقة الواقعة بين غرناطة والبحر المتوسط .

وقد أفرد الجغرافيون في أوصافهم حيِّزاً قليلاً لتربية الحيوانات التي تستخدم في الركوب والجر أو الحيوانات التي يؤكل لحمها . وكانت الخيول تربى في الأراضي المكسوة بالحشائش في الحوض الأدنى لنهر الوادي الكبير ، كما كانت البغال الأندلسية تحظى فعلاً بشهرة كبيرة في عهد ابن حوقل ، وكانت الماشية والأغنام

والماعز تربى في كل مكان للإفادة من المـراعي القليلـة المتاحة . وكـان الناس يقومون بتربيـــة النحل لإنتاج العسل .

وكـــانت منطقة الغابات في الأندلس تُستغل لسد احتياجات المدن وبخاصة من الفحم النباتي . وكانت أشجار الصنوبر الـــكثيرة على حافة الميـــزيتا تقطع لاستخدامها دعامات لصواري السفن . أما الأراضي الفسيحة الشبيهة بالسهوب في الجنوب الشرقي فكانت تزود البلاد بأشجار النخيل القصيرة ونبات الحلفاء التي كانت تستخدم في صناعة السلال ، وفي أغراض منزلية مختلفة .

٢ ـ **استغلال المعادن** : ليس من شك في أن غنى أرض الأندلس بالمعادن كان يبرر استغلال المعادن منذ أقدم العصور ، وقد استمر هذا العمل في عهد الاسلام ، وكـــان الى جانب الـــذهب المستخرج من الرمال التي تحمل الذهب في بعض الأنهار ، عروق من الفضة والحديد تستخرج من مناجم في شمالي قرطبة ،

وكانت هناك رواسب من الزنجفر تستغل في المعدن وأوڤيخو ، وكان النحاس يستخرج من مناجم حجر النار في إقليم ولبة . وكانت معادن الشب وكبريتات الحديد والرصاص وكبريتور الرصاص تستخرج أيضاً . كما كانت أسبانيا الاسلامية مشهورة برخامها وأحجارها الكريمة . وأفاد الأندلسيون ـ مثل الرومان قبلهم ـ من كثير من الينابيع الحارة التي لا تزال كلها تقريباً تحتفظ باسمها القديم : الحامَّة .

وكان استغلال مناجم الملح الصخري ورواسب الملح على الساحل في قادس والمرية ولقنت صناعة مزدهرة . وكان الناس يشتغلون بالصيد متوسلين خاصة بشباك الخيوط والمضْرَبة ، وكانت أسماك السردين والتونة تصاد بكميات كبيرة .

سادساً - إلمامة عامة بتاريخ الأندلس

ليس في ميسورنا هنا الا ان نقدم موجزاً لتطور تاريخ الأندلس أثناء القرون السبعة لاحتلال المسلمين لشبه جزيرة إيبيريا . ولزيادة الإيضاح سوف نقسم هذا الموجز الى عدد من الأقسام التاريخية التي تتيح تقديم رواية مرتبطة تاريخيّاً دون الحاجة الى ذكر الحوادث بتفصيل أكبر في معظم الحالات .

١ - فتح الأندلس .

٢ - تاريخ الأندلس حتى استعادة المروانيين للخلافة .

٣ - المملكة المروانية في قرطبة .

٤ - الخلافة والحكم العامري المطلق .

٥ - انهيار الخلافة المروانية وتقسيم مملكة الاندلس .

٦ - ممالك ملوك الطوائف حتى معركة الزلاّقة .

٧ - اسبانيا في عهد المرابطين .

٨ - اسبانيا في عهد الموحدين وتقدم المسيحيين
في إعادة غزوها .

٩ - المملكة النصرية في غرناطة وختام إعادة الغزو .

١ - فتح الأندلس

فتح الأندلس : يُعد فتح الأندلس من أعظم الفتوح التي قام بها العرب في القرن الأول للاسلام ، ونظراً للسرعة التي تم بها . والأخبار التي وصلتنا عن المـراحل المتعاقبة للفتح التي أدت الى بسط سلـطان المسلمين على شبه جزيـرة إيبيريـا بأسرها قصير بصفة خاصة ، ولا يمكن الاعتماد عليها ، ذلك أن الأساطير لم تلبث أن غشت الحقيقة التاريخيـة بقناع يكـاد من الصعب النفوذ إليها دائماً . ومن الـواضح أن العرب أفادوا في الـوقت المـلائم من ضعف مملكـة القوط الغربيـين في أسبانيـا فوجهوا اليها اهتمامهم ، وأنهم وجدوا تعاوناً صادقاً من كثيرمن الأسبان أنفسهم الذين كانوا راغبين في أن يطرحوا عن كاهلهم نير العبوديـة الـذي أصبح بالنسبة لهم عبئاً لا يطاق ، والاستعانة

بالعرب في التخلص منه . وكـانت الفرصة مغريـة عندما كان سلـطان العرب في شمالي مراكش قد توطد وشيكاً ، وكان منصب والي افريقيـة والمغرب في يدي موسى بن نُصير (أنظر هذه المادة) . ويرجع الفضل في فتح الأندلس الى هذا الوالي ونائبه مولاه طارق بن زياد (أنظر هذه المادة) .

ويبدو من المؤكـد أن موسى بن نُصير نفسه استقر عزمه على محاولـة احتلال أراض جديـدة على الجانب الآخر من مضيق جبل طارق قبل أن يبحث بالأمر الى الخليفة الأموي في دمشق ، واتخذ موسى هذه الخطوة نتيجة للوعود التي تلقاها من نائب الامبراطور في مدينة سبتة التي ظلت في حوزة البوزنطيين على الرغم من سقوط قرطاجنة حديثاً في ايدي المسلمين . وسهل هذا النائب ، وهو الكـونت يوليـان ، للمسلمين النزول لأول مرة على أرض أسبانيا ، ولم يكن هذا النزول إلا غارة فحسب قام بها طريف قائد البربر على جزيـرة طريف في رمضان سنة ٩١ هـ (يوليه سنة ٧١٠ م) .

وشجع نجاح الغارة التي قام بها طريف ، طارقاً نائب موسى بن نُصير ، على الاستعداد للحرب بقوة هجومية مكـونة من ٧,٠٠٠ رجل وطدت أقدامها على أرض الأندلس قرب جبل طارق بمساعدة أسطول الكـونت يوليان الصغير في شهر رجب أو شعبان من سنة ٩٢ هـ (أبريل ـ مايو سنة ٧١١ م) .

ووقعت المعركـة الحاسمة بين قوة المسلمين المهاجمة والجيـوش النظاميـة لملك القوط الغربيـين بعد بضعة أسابيع ، يوم ٢٨ رمضان سنة ٩٢ هـ (١٩ يوليه سنة ٧١١ م) في وادي لكه (وادي بربط) وانتهت بكارثة للقوط الغربيين الذين اضطربوا وولّوا فراراً ، بينما قرر طارق أن يزحف الى الأمام . وسقطت مدن المملكـة القوطية واحدة إثر أخرى : فقرطبة استولى عليها عتيق يدعى مغيثاً في مستهل عام ٩٣ هـ (أكتوبر سنة ٧١١ م) ، وسقطت طليطلة دون مقاومة . ولما كان موسى ابـن نُصير تواقاً الى ألا يدع طارقاً ينفرد وحده بكل المجد الذي يضفيه الفتح ، فإنه دخل أسبانيا بعد ذلك بوقت

قصير في رمضان عام ٩٣ هـ (يونيه سنة ٧١٢ م) على رأس قوة من ١٨,٠٠٠ رجل أغلبهم من العرب ، واستولى على إشبيليـة ثم ماردة في شوال سنة ٩٤ هـ (يونيـه - يوليـه ٧١٣ م) والتقى موسى بطارق عند طليطلـة ، ومن هناك زحف ليحتل سرقسطة . وفي ذلك الوقت تلقى أمر الخليفة الوليد بالعودة مع طارق الى الشام ، فغـادرا أسبانيا التي كانت قد فتحت كلها تقريباً ، ولم يعودا اليها قط .

٢ ـ تاريخ الأندلس حتى استعادة المروانيين للخلافة

ليس من شك في ان شخوص موسى بن نُصير إلى الشرق يفتح فترة تبوأ فيها عدد من الولاة الواحد بعد الآخر مناصب حكام البلد الذي فُتح حديثاً وخولوا من قبل حكومة دمشق سلطات يباشرونها أو تولّوا مناصب نواب للوالي بالاسم في القيروان ، وهي فترة يكتنفها الظلام الى أقصى حد ، بعثت فيها المنافسة بين العشائر العربية في أسبانيا ، وأدت الى أعظم بلبلة سياسية وتميزت فحسب بمحاولات عديدة لبسط سلطان المسلمين على الاقليم الغالي (الاستيلاء على برشلونة وجيرون ونربونة) والقيام بغارة على أهالي نربونة وتولوز سنة ١٠٠ ـ ١٠٢ هـ (٧١٩ ـ ٧٢١ م) ، وفي عام ٧٢٥ م أنفذت حملة الى وادي نهر الرون حتى

برغنديا . وانتهت آخر حملة كبيرة قام بها الوالي عبد الرحمن الغافقي الذي قتل أثناء المعركة بهزيمة المسلمين على يد شارل مارتل دوق الفرنجة في « بلاط الشهداء » ، وهي معركة غلب عليها اسم معركة بواتييه ووقعت في رمضان سنة ١١٤ هـ (أكتوبر سنة ٧٣٢ م) .

بيان بولاة الأندلس المسئولين
أمام الخلفاء في دمشق

١ ـ عبد العزيـــز بن موسى بن نُصير (انظر هذه المادة) ، خلف أباه عقب وفاته سنة ٩٤ هـ (٧١٢ - ٧١٣ م) واغتيل في رجب سنة ٩٧ هـ (مارس سنة ٧١٦ م) .

٢ ـ أيوب بن حبيب اللخمي (٩٧ هـ = ٧١٦ م) ومدة ولايته ستة شهور ،

٣ ـ الحُـرّ بن عبد الرحمن الثقفي (انظر هذه المادة) تولى الأندلس سنة ٩٧ ـ ١٠٠ هـ (٧١٦-٧١٩ م)

٤ - السَّمْح بن مالك الخَولاني ، تولاها من رمضان سنة ١٠٠ هـ - ذو الحجة سنة ١٠٢ هـ (٧١٩ - ٧٢١ م) .

٥ - عَنْبَسَة بن سُحيم الكلبي ، تولاها من سنة ١٠٢ - ١٠٧ هـ (٧٢١ - ٧٢٦ م) .

٦ - عُذْرَة بن عبد الله الفهري ، تولاها سنة ١٠٧ هـ (٧٢٦ م) .

٧ - يحيى بن سلامة الكلبي ، تولاها من سنة ١٠٧ - ١١٠ هـ (٧٢٦ - ٧٢٨ م) .

٨ - حُذَيفة بن الأحوص القيسي ، تولاها سنة ١١٠ هـ (٧٢٨ م) .

٩ - عثمان بن أبي نِسْعة الخثعمي ، تولاها من سنة ١١٠ - ١١١ هـ (٧٢٨ - ٧٢٩ م) .

١٠ - الهيثم بن عبيد الكلابي ، تولاها سنة ١١١ هـ (٧٢٩ - ٧٣٠ م) .

١١ - محمد بن عبد الله الأشجعي ، تولاها من سنة ١١١ - ١١٢ هـ (٧٣٠ م) .

١٢ ـ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (انظر هذه المـادة) ، تولاها من سنة ١١٢ ـ ١١٤ هـ (٧٣٠ ـ ٧٣٢ م) .

١٣ ـ عبد الملك بن قَطَن الفهري (انظر هذه المـادة) ، تولاها من سنة ١١٤ ـ ١١٦ هـ (٧٣٢ ـ ٧٣٤ م) .

١٤ ـ عقبة بن الحجّاج السَّلُولي ، تولاها من سنة ١١٦ ـ ١٢٣ هـ (٧٣٤ ـ ٧٤١ م) .

١٥ ـ عبد الملك بن قطن (للمرة الثانية) حتى سنة ١٢٣ هـ (٧٤١ م) .

١٦ ـ بَلْج بن بشر القُشَيْري (انظر هذه المادة) ، تولاها من سنة ١٢٣ ـ ١٢٤ هـ (٧٤١ ـ ٧٤٢ م) .

١٧ ـ ثعلبة بن سلمة العاملي ، تولاها سنة من ١٢٤ ـ ١٢٥ هـ (٧٤٢ ـ ٧٤٣ م) .

١٨ ـ أبو الخَطَّار الحسام بن ضرار الكلبي ، تولاها من سنة ١٢٥ ـ ١٢٧ هـ (٧٤٣ ـ ٧٤٥) .

١٩ ـ ثَوَابَة بن سلمة الجذامي ، تولاها سنة من

١٢٧ ـ ١٢٩ هـ (٧٤٥ ـ ٧٤٦ م) .

٢٠ ـ يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، تولاها من سنة ١٢٩هـ (٧٤٦ م) ـ سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦م) وهو تاريخ إعلان البيعة لعبد الرحمن الأول .

٣ - المملكة المروانية في قرطبة
١٣٨ - ٣٠٠ هـ = ٧٥٦ - ٩١٢ م

إن الظروف التي صاحبت وصول عبد الرحمن بن معاوية المطالب بالخلافة الى أسبانيا ، ومكنته من أن يكسب لقضيته عدداً كبيراً من الأتباع والأنصار من أسرته ، وانتهت بهزيمة الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهري قرب قرطبة حيث بويع عبد الرحمن أميراً للأندلس في اليوم العاشر من ذي الحجة عام ١٣٨ هـ (١٥ مايو سنة ٧٥٦ م) قد رويت في المادة الخاصة بهذا الأمير (انظر مادة « عبد الرحمن الأول ») .

بيان بأمراء الأندلس
حتى مبايعة عبد الرحمن الثالث

١ ـ عبد الرحمن الأول بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، ولـد عام ١١٣ هـ (٧٣١ م) ، وأمير الأندلس من عام ١٣٨ هـ (٧٥٦ م) الى عام ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) .

٢ ـ هشام الأول بن عبد الرحمن الأول ، ولد عام ١٣٩ هـ (٧٥٧ م) ، وأمير للأندلس من عام ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) حتى وفاته في ٣ صفر عام ١٨٠ هـ (١٧ أبريل سنة ٧٩٦ م) .

٣ ـ الحكم الأول بن هشام الأول ، ولد عام ١٥٤ هـ (٧٧٠ م) ، وأمير الأندلس من عام ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) حتى وفاته في ٢٥ ذي الحجة سنة ٢٠٦ هـ ٢١ مايو سنة ٨٢٢ م) .

٤ ـ عبد الرحمن الثاني بن الحكم الأول، ولد عام ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) ، وأمير الأندلس من عام ٢٠٦ هـ (٨٢٢ م) حتى وفاته يوم ٣ ربيع الثاني عام ٢٣٨ هـ ٢٢ سبتمبر سنة ٨٥٢) .

٥ ـ محمد الأول بن عبد الرحمن الثاني ، ولد عام ٢٠٧ هـ (٨٢٣ م) ، وأمير الأندلس من عام ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) حتى وفاته يوم ٢٨ صفر عام ٢٧٣ هـ (٤ أغسطس سنة ٨٨٦) .

٦ ـ المنذر بن محمد الأول ، ولـــد عام ٢٢٩ هـ (٨٤٤ م) ، وأمير الأندلس من عام ٢٧٣ هـ (٨٨٦م) حتى وفاته يوم ١٥ صفر ٢٧٥ هـ (٢٩ يونيه سنة ٨٨٨ م) .

٧ ـ عبد الله بن محمد الأول ، شقيق الخليفة السابق،

ولد عام ٢٢٩ هـ (٨٤٤ م) ، وأمير الأندلس من عام ٢٧٥ هـ (٨٨٨) حتى وفاته في غرة ربيع الأول عام ٣٠٠ هـ (١٦ أكتوبر سنة ٩١٢ م) .

ومن بين المعالم المشهورة لهذه الفترة التي تولى فيها بنو مروان إمارة الأندلس واستمرت أكثر من قرن ونصف قرن ، إدخال المذهب المالكي الى الأندلس إبان حكم هشام الأول الذي استتب فيه السلام ، وجهود الأمراء طوال الفترة بأكملها تقريباً في علاج الفتن التي كان قد أثارها البربر والعرب في الثغور وإعلان الجهاد على حدود المملكة . وادت المحاولات التي بذلت للإطاحة بالحكم الأول (وبخاصة « فتنة الرَبض » الشهيرة) في مناسبات عديدة الى وضعه في موقف خطير . وفضلاً عن هذا فإن حركة إعادة الغزو على يد المسيحيين نجحت بالتدريج نتيجة للروح العدائية لأمراء أشتوريش وليون الأوائل ، وإفرنج الثغر الأسباني (وانتهت أخيراً بسقوط برشلونة) .

وانفرجت الأزمة الداخلية الى حين على يد عبد

الرحمن الثاني (انظر هذه المادة) الذي حارب في وقت واحد الإفرنج والغسقونيين (انظر هذه المادة) في وادي إبره وسحق ثورة المستعربين في قرطبة (عام ٨٥٠ ـ ٨٥٩) وألقى في البحر الأردمانيـين ـ أو المجوس ـ الذين نزلوا على ساحل إشبيلية . وهذا الحاكم العظيم خالف « التقليد الشآمي » الذي أدخله الى أسبانيا جده الأكبر عبد الـرحمن الأول ، ونظم الدولـة على النمط العباسي .

وواصل عملـه ابنه محمد الأول ، على أن حركـة العصيـان التي قام بها عبد الـرحمن بن مروان الجلّيقي (انظر هذه المـادة) قد تجددت اثناء حكمه ، وقامت فتنة عمّت جنوبي الأندلس بأسره بزعامة عمر بن حفصون (انظر هذه المـادة) واستمرت إبان العهود التالية ، زد على ذلك أنه نشب في أيام الأمير عبد الله قتال خطير بين العرب والمولـدين في إقليمَي إلبيرة وإشبيلية .

٤ - الخلافة والحكم العامري المطلق

بالنسبة لحكم عبد الرحمن الثالث الناصر الذي كان طويلا مثمراً ، وعودة الخلافة القرطبية ، والسياسة الداخلية والخارجية : مادة « عبد الرحمن الثالث »

ولم يكن حكم عبد الرحمن الثالث الذي دام خمسين عاماً هو ذروة حكم بني مروان في شبه الجزيرة فحسب ، بل لقد كان أيضاً أزهى العصور في تاريخ المسلمين بالأندلس . ولما توفي عبد الرحمن في ٢٢ رمضان سنة ٣٥٠ هـ (٤ نوفمبر سنة ٩٦١ م) . خلفه ابنه الحكم الثاني ، وكان يبلغ من العمر زهاء خمسين عاماً ، وظل في الحكم حتى توفي في ٣ صفر سنة ٣٦٦ هـ (أول أكتوبر سنة ٩٧٦ م) . وكان حكم الحكم الثاني أيضاً موفقاً ومزدهراً . ولقد كانت قرطبة

كما وصفتها الشاعرة الساكسونية هرسويذاHroswithal « زينة الدنيا » ، كما وجدت في الوقت نفسه في شخص أمير مثل الحكم الثاني ـ الذي كان أديباً محباً للكتب ـ ما يحفزها الى أن تصبح أعظم مركز ثقافي للغة والأدب والفقه في العالم الاسلامي بأسره لذلك العهد ، والتمست أسبانيا المسيحية منه التحكيم ، وبدا أن حركة إعادة الغزو قد كبح جماحها الى غير رجعة .

ولما توفي الحكم الثاني لم يترك خلفاً له الا ابناً صغيراً لا يصلح للحكم هو هشام الثاني الذي ولد عام **٣٥٤ هـ (٩٦٥ م)** وكان ثمرة زواج الخليفة من « أم ولد » غسقونية هي صُبْح . وما إن أحبطت دسائس القصر حتى أصبح الطريق ممهداً أمام رجل طموح عالي الهمة ، لم يلبث أن قبض على زمام السلطة ووجّه أقدار الخلافة بيد من حديد : ألا وهو « الحاجب » المشهور محمد بن أبي عامر الذي لقب بالمنصور (انظر هذه المادة) فيما بعد . ولن نعيد هنا بالتفصيل مراحل

الحيــاة المشرقة لابن أبي عامر التي أوصلته بسرعة الى أرفع المناصب ، بيد أن هذا السيـاسي المتوقد الذكـاء أظهر أنه قائد بارع وعالــم بفنون الحرب ينهض بمشروعاته في عزم ونجاح . وقام المنصور بهجمات متتالية في « جهاده » ضد الممالك المسيحية في الشمال ، وأوقع بها هزائم شديدة ، بل نجح في الاستيـلاء على هيكل سانت جيمس الشهير في كومبوستلاّ (Santiago شنت ياقب) وتدميره أثناء الحملــة التي قام بها عام ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ضد جليقية .

ومات المنصور في مدينة سالم يوم ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ هـ (٩ أغسطس سنة ١٠٠٢ م) في طريق عودته من حملة فاصلــة وجهها الى قشتالـة الشماليـة . وترك الأندلس سليمة لم تمس ، بل استطاع أن يبسط النفوذ السياسي للأندلس على بلاد البربر الغربيـة بأسرها ، منتهجاً في هذا السيـاسة التي سار عليها عبد الـرحمن الثالث ، والحكم الثاني .

وكـــان من أبرع ما حققه المنصور أنه احترم طوال

حياته أبهة الخلافة ، وحافظ على بعض امتيازاتها سليمة لا تمس من أجل مولاه هشام الثاني الذي كان يحكم البلاد بالاسم دون الفعل . وأورث هشام نفس سلطات « الحاجب » الابنَ الأثير للمنصور عبدَ الملك الذي خلف أباه واتخذ لنفسه لقب التشريف « المظفر » . وظل عبد الملك يتولى السلطة حتى توفي عام ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م ، انظر مادة « عبد الملك بن أبي عامر » لمعرفة تفاصيل تاريخ حكمه الذي دام سبع سنوات) ، وكانت وفاة عبد الملك بن أبي عامر وحلول شقيقه عبد الرحمن محله إيذاناً بوقوع اضطرابات وبيلة في الخلافة الأندلسية سرعان ما عجلت بسقوطها .

٥ - انهيار الخلافة المروانية وتقسيم مملكة الأندلس

أدت سياسة المنصور العسكرية الى إدخال عدد كبير من بربر شمالي إفريقية المرتزقة الى الأندلس ، أصبحوا بعد وفاته ووفاة خلفه بؤرة تموج بالاضطرابات ضد الأندلسيين أنفسهم، وضد كتلة الصقالبة القوية . وقد أشعل فتيل الثورة الرغبة المحمومة التي أبداها عبد الرحمن سانخويلّو في أن يعهد اليه بالخلافة بعد الخليفة هشام الثاني (ربيع الأول عام ٣٣٩ هـ = نوفمبر ١٠٠٨ م) ، وقد قوبل هذا العهد باستياء شديد في قرطبة ونفذ أنصار محمد بن هشام بن عبد الجبار المطالب بعرش بني مروان حكم الاعدام في الحاجب العامري قرب قرطبة يوم ٣ رجب عام ٣٩٩ هـ (٣ مارس عام ١٠٠٩م) إثر مؤامرة دبرت له (انظر مادة « عبد الرحمن بن أبي عامر ») .

ومرت مملكة قرطبة منذ ذلك الـوقت بفترة كانت نحساً على مصيرها : وعجّل بسقوط الخلافة نهائيـاً المطالبون بالعرش والمنكرون عليهم هذا الحق يؤ يدهم البربر أو أعداء البربر .

بيان بآخر الخلفاء في قرطبة

١ ـ هشام الثاني بن الحكم الثاني المؤيد بالله ، تولى من عام ٣٦٦ ـ ٣٩٩ هـ (٩٧٦ ـ ١٠٠٩ م): ٤٠٠ ـ ٤٠٣ هـ (١٠١٠ ـ ١٠١٣ م) .

٢ ـ محمد الثاني ابن هشام بن عبد الجبار المهدي ، تولى سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩) .

٣ ـ سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الثالث المستعين ، تولى من سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩) ـ ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) .

٤ ـ عبد الرحمن الرابع بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الثالث المرتضى ، تولى سنة ٤٠٨ هـ (١٠٨ م) .

٥ ـ عبد الرحمن الخامس بن هشام بن عبد الجبار المستظهر ، تولى سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ ـ ١٠٢٤م)

٦ ـ محمد الثالث بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الثالث المستكفي ، تولى من سنة ٤١٤ ـ ٤١٦ هـ (١٠٢٤ ـ ١٠٢٥ م)

٧ ـ هشام الثالث بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الثالث المعتدّ ، تولى من سنة ٤٢٠ ـ ٤٢٢ هـ (١٠٢٩ ـ ١٠٣١ م) .

الخلفاء الحمّوديون

١ ـ علي بن حَمُّود ، تولى من سنة ٤٠٧ ـ ٤٠٨ هـ (١٠١٦ ـ ١٠١٨ م) .

٢ ـ القاسم بن حَمُّود ، تولى من سنة ٤٠٨ ـ ٤١٣ هـ (١٠١٨ ـ ١٠٢٣ م) .

ولـم تنتظر طوائف الأندلسيـين والصقالبة والبربر حتى تنهار الخلافة القرطبية ، بل قسّموا الأندلس الى عدد كبير من الدويلات لم يقدّر لمعظمها أن تبقى إلا فترة عابرة ، ولم يبرز من بينها الا كتل سياسية كبيرة قليلة هي ممالك بني عباد في إشبيلية ، وبني الأفطس في بطليوس ، وبني زيـري في غرناطة ، وبني ذي النون في طليطلة ، وبني هود في سرقسطة .

٦ - ممالك الطوائف حتى معركة الزلاقة

يتميز تاريخ أسبانيا في القرن الحادي عشر الميلادي بالجهود القوية التي بذلت لاعادة الغزو ، تلك الجهود التي استنهضها ملوك مسيحيون من ذوي الهمة والقدرة ، كانوا يدركون يوماً بعد يوم الضرورة الملحة لإعادة توطيد الوحدة القومية على حساب الاسلام . وتاريخ ما حدث في داخل الممالك التي نشأت عن تقطيع أوصال الخلافة الأندلسية تاريخ يبعث بخاصة على الضجر ويفتقر الى الأهمية . وهو ، كما صوره الإخباريون ، يرسم صورة للشغب المستمر ، من مصالح متعارضة الى منافسات ومنازعات دائمة ليس من الممكن دائماً العثور على خيط نهتدي به في خضمها . والحق ان الجماعات الشعوبية التي تنتمي

اليها الأسرات الحاكمة ، والتي بقيت بعد غيرها من الجماعات التي . استوعبها خصومها الأقوياء ، قد احتدم الخلاف بين بعضها البعض ، فحارب الأندلسيون البربر ، وحارب الصقالبة الطائفتين معاً . ولم يمض وقت طويل حتى تبدد الأمل في استعادة الخلافة ، وأثار الضعف المتزايد لكل دويلة من هذه الدويلات شهوة الملوك المسيحيين الذين كانوا يتقاضون منها جزية باهظة ، وانتهج هذه السياسة بصفة خاصة الملك ألفونسو السادس الذي نجح بحيلة السياسي البارع في احتلال طليطلة دون إراقة دماء (سنة ١٠٨٥ م) وفي أن يقيم من نفسه حكماً يفض المنازعات بين ملوك الطوائف .

واستفحل الخطر فاضطر ملوك الطوائف ، راغبين أو كارهين ، الى طلب المساعدة من المرابطين ، وجاءت لحظة التحول الحاسمة بتدخل جيوش شمالي افريقية بقيادة الأمير يوسف بن تاشفين الذي هزم قوات ألفونسو السادس في موقعة الزَّلاَّقة (أنظر هذه المادة)

يوم ٢٢ رجب عام ٤٧٩ هـ (٢ نوفمبر سنة ١٠٨٦ م) ولـم تكن ثمة متابعة لهذا النصر ، اذ سرعان ما سئم يوسف بن تاشفين مشهد الانشقاق يمزق صفوف الملوك الأندلسيين وعقدهم اتفاقيات صلح مع الملـوك المسيحيين ، فخلعهم عن عروشهم واحداً بعد الآخر ، وضم القسم الأكبر الى ممتلكاته . وأصبحت الأندلس منذ ذلك الوقت ولاية تابعة للمغرب .

٧ ـ الأندلس في عهد المرابطين

تم احتلال المرابطين للأندلس بالاستيلاء على بلنسية سنة ٤٩٥ هـ(١١٠٢م)التي كانت قد سقطت في يدي السيد القمبيطور رودريكو دياز سنة ٤٧٨ هـ(١٠٨٥م) وبتسليم سرقسطة قصبة آل هود عقب وفاة المستعين سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) . ثم صادفت الأندلس ، على الرغم من سيطرة جماعة الفقهاء ، عدة عقودمن الرخاء تميزت بنجاح لا نزاع فيه أحرزته جيوش المرابطين (انتصار أقليش عام ٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م) التي لم تستطع مع ذلك أن تستعيد طليطلة . وسقطت سرقسطة نفسها في يدي ألفونسو المحارب سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) ، وازداد ضغط النصارى على الأندلس وحقق نجاحاً أعظم لأن ابن

يوسف بن تاشفين وخلفه سرعـــان ما أصبح عاجزاً عن إبداء مقاومة جادة لمظاهر الثورة التي كانت تبدو من كل جانب . وحان الــوقت لتغيــير آخر في من يحكمون الأندلس (انظر مادة « المرابطون ») .

٨ - الأندلس في عهد الموحدين وتقدم إعادة الغزو

مضت فترة دامت ثلاثين عاماً في منتصف القرن الثاني عشر ، تبلورت خلالها بعض الحركات واتخذت نموذجاً جديداً من «ممالك الطوائف» ، ثم خضعت الأندلس لسلطان أسرة بني عبد المؤمن في مراكش . وظلت قبضة الموحدين مقلقلة ما يقرب من قرن على تلك الاجزاء من شبه الجزيرة التي كانت لا تزال تتبع العالم الاسلامي . وكانت حركة اعادة الغزو تكسب أرضاً جديدة كل عام ، فقد احتل رامون بيرنكير الرابع في قطالونيا مدينة طرطوشة ، ثم مدينة لاردة ، ولكن المخطِّط الأكبر لحركة إعادة غزو الأندلس ، كان هو ألفونسو الثامن ملك قشتالة (١١٥٨ - ١٢١٤ م) الذي استولى على شلب ويابرة وقونكة . ولم يكن

لانتصار المسلمين في وقعة الأرك على يد الخليفة الموحدي أبي يوسف يعقوب في ٨ شعبان عام ٥٩١ هـ (١٨ يوليو سنة ١١٩٥ م) أثر باق ، ذلك أنه لم يكد يمضي عليــه أقل من خمسة عشر عاماً حتى تحالف النصارى وأنزلت جيوش مشتركـة من قشتالـة وليـون ونبارة وأراغون هزيمة ساحقة بالمسلمين في وقعة العِقاب (لاس ناڤاس دي تولوزا) يوم ١٥ صفر سنة ٦٠٩ هـ (١٧ يوليــو سنة ١٢١٢ م) أعقبها سقوط ابــذة وبيّاسَة . وتم الاستيـلاء على قرطبة بعد أقل من ربع قرن ، وأعقبه استيـلاء جاك الأول ملك أراغون على بلنسية سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) ، وفرديناند الثالث على إشبيلية سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م)

٩ـ المملكة النصرية في غرناطة ونهاية عهد الغزو

استمرت « مملكـــة غرناطة » أكثر من قرنين ونصف قرن الأرض الوحيدة في شبه جزيرة إيبيريا التي ظلـت تخضع لسلـطان حاكـم مسلـم على الـرغم من الأجزاء المتتالية التي اقتطعت منها ، وهذه المملكة التي يحدها البحر المتوسطمن جبل طارق الى المرّية لم تمتد في الـداخل الى ما وراء كتل جبال شارات رندة وشارات إلبيرة . واستولى جد الأسرة النصريــة (أو بنو الأحمر)ومؤ سسها محمد الأول الغالـب باللّـــه ، على غرناطة سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ ـ ١٢٣٨ م)وشيّد قلعة أطلق عليها اسم الحمراء واتخذها قصراً له . ورضي في الوقت نفسه أن يؤ دي الجزية بعنبره تابعاً لفرديناند الأول ملك قشتالة ، ثم لخلفه ألفونسو العاشر . ومنذ

ذلك الوفت كانت سياسة ملوك غرناطة تقوم على تحقيق توازن حرج في تحالفهم مع النصارى ، أو مع بني مرين في مراكش الـذين تدخلـوا عسكريـاً في أرض الأندلس واحتلـوا مراكـز معينة مثل طريف . وأثبتت الحوادث شيئاً فشيئاً أن التعاون المراكشي كان وهماً من الأوهام . فقد لقي السلطان أبو الحسن هزيمة منكـرة على وادي سليط سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) . وظلت غرناطة تحتفظ بشيء من هيبتها بوصفها عاصمة ، وبفضل آثارها وندواتها الأدبية التي برز فيها رجال من أمثال لسان الدين بن الخطيـب . وفي القرن التالي ، ومع ظهور الملكين الكاثوليكيين فرديناند الأراغوني ، وإيزابلاّ ملكة قشتالة ، أصبح هجوم النصارى يتم في تناسق تام ويوجه على نطاق واسع . فسقطت لوشة عام ١٤٨٦ م ، وبالش ـ مالقة والمرّيـة في العام التالي ، وبسطة عام ١٤٨٩ م . وأخيراً استسلمت غرناطة للملكين الكاثوليكيـين في ٢ ربيع الأول عام ٨٩٧ هـ (٣ يناير سنة ١٤٩٢ م) .

[ليفي بروفنسال F . Lévi — Provençal

ملحق : الاندلس في شمالي أفريقية

كلمة « الأندلس » ـ من حيث هي اسم جنس ـ مشهورة بخاصة في مصطلح شمالي افريقية ، حيث تدل على ذلك العنصر من السكان المسلمين الذي ترجع أصوله الى أسبانيا . والعنصر الأندلسي بصفة عامة لا يظهر ظهوراً بارزاً الا ابتداء من نهاية القرن الخامس عشر الميلادي تقريباً ، ولكن الأمر هنا لا يقتضينا أكثر من التعرض لذروة اتجاه تاريخي طويل .

وفي خلال التاريخ الاسلامي في أسبانيا ، كانت الهجرة الى المغرب في كثير من الأحوال وسيلة من وسائل سكان الأندلس للخلاص من أزمة داخلية . ثم ان المصالح التجارية والخارجية الأندلسية لعبت أيضاً دوراً كبيراً في وفود العناصر الأسبانية الاسلامية الى المناطق الساحلية في غربي بلاد المغرب ووسطها .

ومنذ منتصف القرن الثاني عشر تقريباً ، وحين كانت الكوارث التي نزلت بالمسلمين في غربي الأندلس سبباً في تدفق سيل من المهاجرين على قصر الـكتامة (القصر الكبير) ، ثبت أن تقدم إعادة الغزو له أهمية متزايدة ، ولو أنه لم يكن بأي حال من الأحوال السبب الوحيد للهجرة الى شمالي افريقيـة . وازدادت حركـة الهجرة انتشاراً ، بازدياد تفكك أسبانيـا الاسلاميـة ، حتى القرن الخامس عشر ، وهنالك وقعت الأحداث الخطيرة التي أنذرت بسقوط غرناطة ، وقد ثبت أن هذه الأحداث كانت بداية حركة تشتت حقيقية أحدثت في شمالي إفريقية آثاراً لها قيمتها .

وما إن انتهى القرن السادس عشر حتى كان عدد الأندلسيين المبعدين عن وطنهم الى أرض المغرب كبيراً الى الحد الذي يمكن اعتبارهم معه أقليـة لها شأنها بين سكان المغرب .

وحل القرن السابع عشر ، وجاء معه بتطورات جديـدة ، ولن يمضي بنا وقت طويل حتى نرى نتيجة

طرد العرب الأسبانيين جملة ، ويقال ان أعداداً كبيرة انطلقت من الموانىء التي أقلعوا منها الى فاس وتلمسان ، ولكن نسبة كبيرة من هؤلاء تعرضت للموت أو للسلب والنهب بأيدي القبائل العربية . ونجح كثير من الآخرين في الانضمام الى مواطنيهم في الجزائر وفي تونس حيث كان عثمان داي يشجع على انتهاج سياسة الهجرة ، فكان المهاجرون يتدفقون عليها زرافات .

ويمكن رسم صورة تفصيلية لا بأس بها للأندلسيين الذين استقروا على هذا النحو في تونس في القرن السابع عشر . لقد كانت حالتهم تختلف الى حد ما عن حالة أسلافهم في القرن الثالث عشر الذين اشتهروا بالدور السياسي العظيم الذي قاموا به في الدولة الحفصية ، وظهروا في صورة جماعة متفردة منظمة تنظيماً عالياً تخضع لرئيس يسمى « شيخ الأندلس » ، ويبدو أنهم قد تمتعوا في مجتمعاتهم القروية ببعض الحقوق الشرعية وحظ كبير من الاستقلال في الحكم

المحلي . وليس من شك في أن احتكـــار صناعة « الشاشية » الناجحة والمنظمة تنظيماً جيداً قد أتاحت لهم تعديل النظام الاقتصادي حتى أصبح « أمين الشوّاشَة » قانوناً هو أمين التجارة ، يرأس محكمة تجاريـــة تخضع لها كل الـــطوائف الحرفيـــة ، وكـــان أعضاؤ ها ـ فيما عدا اثنين فقط ـ يختارون من الشوّاشة الأندلسيـــين . وفي مجال الـــزراعة انصرفت مهارة الأندلسيين ، التي احتضنها عثمان داي المثقف ، الى استغلال الأراضي الخصبة في الشمال ، حيـــث طبق العرب الأسبانيـون باقتدار معرفتهم بالـري وأساليب الزراعة الفنية على زراعة الأشجار وفلاحة البساتين . وكـــان انتاج الحريـــر الخام ونقلـــه وصناعة الأقمشة والمنسوجات والسلع المـوشاة في القرنين السادس عشر والسابع عشر من الخصائص الـكبرى التي تميـــز بها المنفيون ، مثال ذلك أن صناعة الحرير في الجزائر كان معظمها في أيديهم ، وقد أسهمت إسهاماً كبيراً في ثراء المـــدينة . ومن جهة أخرى فإن الـــكثيرمما يمكن أن

يكـــونوا قد أسهموا به في المغرب قد ضاع . وفي مراكش ، مثلاً ، كان السعديـــون ينشدون غالباً الاستفادة منهم قوة عسكريـة . وبالنسبة للباقين يعد اشتغالهم بالقرصنة وتجارة الرقيق مسئولاً لا محالـة عن اختفاء المهارات المأثورة . ومهما يكن من أمر فإن آثارهم لا تزال باقية في كثير من المجالات ، وكثير من أهالي شمالي إفريقيـــة يعلنون في فخر انهم من أصل أندلسي ، وهو أمر واضح في كثير من الحالات من أسماء أسرهم .

(باريس سنة ١٩٥٥ ، الفهرس .

ج . د . لاثام J . D . Latham]

سابعاً - الاسلام في الأندلس

كانت الأندلس دائماً معقل المالكية وقاعدة للسنية منذ مستهل القرن التاسع عندما اعتنق مذهب المدينة وحل محل مذهب الأوزاعي . ولم يكن هناك احتمال بتوطيد دعائم شعائر أخرى في العهد المرواني ، لأن المذهب الجديد كان يلقى تأييداً رسمياً من حكام البلاد ، وقمعت كل نزعات الخوارج والشيعة في مراحلها الأولى ، ولم يستطع الأندلسيون أن يوجهوا نشاطهم في مجال الكلام والفقه إلا نحو التوسع في رسائل الفروع والتمسك الدائم بالتقليد . ومهما يكن من أمرفإنه من الواضح أن مدرستي الشافعيةوالظاهرية تسللتا في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) ، وإن كان من المسلم به أن هذا قد

حدث بصورة طفيفة ، وكان ممثل المدرسة الظاهرية في الأندلس القاضي المنذر بن سعيد البلّوطي المتوفى عام ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) حتى وجدت « حامل لوائها » في شخص ابن حزم (انظر هذه المادة)المشهور . وكذلك كان واضحاً أن مذهب المعتزلة قد صادف بعض الانتشار في بعض العهود ، وهو يطابق ما حدث من إحياء لنزعات الزهد التي كان ممثلها الأساسي هو الفيلسوف القرطبي ابن مسرَّة (أنظر هذه المادة) المتوفى سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م)

أما الممثلون للمالكية الأندلسية الذين وصلت إلينا أسماؤهم وبلغتنا مصنفاتهم أحياناً ، فإنهم جمع كبير . وكلهم تقريباً كتبت نبذ عن سيرهم في المجموعات التي نشرت في المكتبة الأندلسية : (Bibliotheca arabico Hispana) فلما سقطت الخلافة تمسك الناس بالشريعة وقدروها أكثر من ذي قبل ، وكثيراً ما أصبحت طبقة الفقهاء قسماً من السكان يتمتع بأكبر قدر من النفوذ والنشاط وبخاصة في عهد المرابطين .

ويمكن القول بأن الأندلس ، من وجهة نظر العقائد ، لم تتأثر بدعاية الموحدين إلا نادراً ، وظلت للمالكيـة فيها اليد العليا حتى النهاية .

[ليفي پروفنسال E . Lévi — Provençal

ثانياً - الفن الأندلسي

لقد كانت شبة جزيرة إيبيريا منذ العصور القديمة
ـطقة صالحة لنمو المؤثرات الشرقيـة فيها ، بفضل
ـقعها الجغرافي الـذي يحيـط بالـطرف الغربي للبحر
ـتوسط ، وبفضل غلبة خصائص منطقة هذا البحر
ـليها . وشاهد ذلك قول سارتون بأن توافر دين
ـشترك ولغة مشتركـة - وهما العاملان اللـذان يحدثان
ـوى الـروابط بين الشعوب - قد دعم العلاقات بين
ـنطقتين ، وهي علاقات أفادت أيضاً من الفرض
ـديني الذي قضى بالحج الى مكة .

ووصلـت الاتجاهات والأشكـال الفنيـة الى شبه
ـلجزيـرة الإيبيريـة من الشرق عبر فترة امتدت ثمانيـة
ـرون ، وبعض هذه الاتجاهات نمت فأصبحت أسمى

درجةً وأفسح مدىً مما كانت عليه في بلدها الأصيل . وفي الفن الأندلسي أصداء من الفن البوزنطي ومناطقه الثقافية في الشام وبلاد ما بين النهرين وفارس ومصر وإفريقية . وصيغ فن العصور الوسطى في الشام وفي أرض شبه جزيرة إيبيريا على غرار فن رومة الأمبراطورية . وإن رجوع بعض أشكال الآثار الفنية في هذين القطرين الى زمن واحد يشير أحياناً الى أصلهما المشترك ولا يدل على وجود علاقة مباشرة بين الاثنين . ومع ذلك فان الحضارة في شرقي البحر المتوسط قد تطورت دون ان يوقفها شيء منذ القرون الأولى للعصر المسيحي وأثناء القرون الأولى من الاسلام ، على حين ان شبه جزيرة إيبيريا والغرب ـ بصفة عامة ـ قد كابدا أزمات شديدة وتعرضا لانحلال كبير في معيار حضارتهما .

ولا نعرف كثيراً من التفاصيل عن مرحلة انتقال أسبانيا من حكم القوطيين ـ حين تجلى افتقارها الى التجانس واضمحلالها من ضعف مقاومتها للغزاة ـ الى

حكـــم المسلمين . ففي المجال الفني تعوزنا التحف الفنيةوالآثار الباقيـة من هذا العهد الغامض والعصور الإسلامية التالية له ، ونشأ عن هذا ان الثغرات في كثير من الحالات يجب ان تسد عن طريـق الحدس والتخمين .

وقد تطور الفن الأندلسي واتخذ له طابعاً أصيـــلاً مميزاً . وحدث أثناء فترة الاتصال بالشرق بين القرنين الثاني والتاسع الهجريّين (الثامن والخامس عشر الميلاديـين) أن شيـدت هناك بعض الآثار التي تنفرد بجمال لا يضارَع ، وكمال وأصالة لا نجدها بقيت في أي بلـــد اسلامي آخر . فمسجد قرطبة المتفرد ببنائه البارع وبثراء زخرفته ، وقصور مدينة الزهراء التي لا تُسامى في فنها وفخامتها ، وقصر الجعفريـة في سرقسطة ، الـذي يمتـاز بإبـداع عجيـب وبـذخ في زخرفته ، والـــذي يجري العمل في الـوقت الحاضر لاستعادة بنائه ، وبرج الخيرالـدة ، وهو منارة أثريـة تعد من أجمل الآثار في العالم الاسلامي ؛ وأخيراً هناك

قصر ضخم هو قصر الحمراء في غرناطة ، لا يزال محتفظاً بحالته على نحو عجيب على الرغم من رهافته الشديدة ، وقد تجمع فيه فن العمارة وبدع الطبيعة من ماء جار وخضرة يانعة لتجعل منه مشهداً من أعظم مشاهد العالم إلهاماً .

العمارة

الأمويون : ومع افتقارنا الى العمائر القديمة ، فاننا يجب ان نبدأ دراسة العمارة الاسلامية في الأندلس من أقدم جزء في مسجد قرطبة الذي شيده عبد الرحمن الأول بين عامي ١٦٨ و ١٧٠ هـ (٧٨٤ ـ ٧٨٦ م) أي في فترة تبلغ ثلاثة أرباع القرن بعد غزو شبه الجزيرة وفتحها . وقبيل وفاة هذا الأمير لم يكن باقياً على اكتمال بناء المسجد إلا اللمسات الأخيرة ، وقد قام بإتمامها ابنه هشام (١٧٢ ـ ١٨٠ هـ = ٧٨٨ ـ ٧٩٠ م) .

ويحتل هذا المصلى القديم الجانب الشمالي الغربي من البناء الذي لا يزال قائماً حتى اليوم . والمسجد مستطيل الشكل ، وجدرانه من الحجر ، وهو مقسم الى احدى عشرة مقصورة تتجه من الشمال

الى الجنوب بحيث تكون عمودية على جدار القبلة ، والمقصورة الـوسطى أكبر من المقصورات الأخرى ، ويفصل المقصورات بعضها عن بعض أعمدة من الرخام أخذت من المباني الرومانية او القوطية الغربية . وعلى التيجان ترتكز حدائر مربعة الشكل ، وهي بدورها تحمل حجرية مستطيلة . والنتوء محمول استعراضاً بوساطة مساند بارزة وينتهي من أعلى بحديرة . ودعائم العقود متصلة طولياً بصفّين من العقود . والعقود السفلى على شكل حدوة الفرس ، وهي معلقة ولا تدعم شيئاً ، وفوقها صف ثانٍ من عقود شبه دائرية تبرز من الحدائر وتحمل الجدران .

وباستخدام هذه الطريقة في البناء أمكن إقامة بناء ضخم على أعمدة رشيقة مع الاستفادة الى أقصى حد من المساحة الداخلية وتحقيق رؤية المؤمنين للامام بوضوح ، وهو يؤمهم في الصلاة . ولما كان عرض الدعائم قد زاد بالنسبة لارتفاعها ، فقد أصبح من

الميسور أن تحمل الأسقف وأن توضع في سمك الجدران ميازيب لتصريف مياه المطر .

وطريقة البناء بعقود مزدوجة متراكبة مما يضفي على مسجد قرطبة جمالاً أصيلاً وطابعاً فريداً في عمارة القرون الوسطى لا نجدهما في أي مسجد آخر ، ففي المساجد الأخرى ذات الأعمدة تحمل العقودَ التي تفصل المقصورات عروق خشبية تضفي عليها مظهر المباني الموقوتة . ومن عجب أننا نجد في قرطبة في النصف الثاني من القرن الثامن مثل هذا البناء الكامل ، نظراً للعجز الظاهر في المهارة المعمارية الذي يوحي به استخدام أعمدة كانت أصلاً في عمائر أقدم عهداً .

وقد بذلت محاولات متكررة لاثبات أصل هذه الأشكال ، ويمكن أن تكون طريقة استخدام العقود المزدوجة قد استلهمت من المنشآت الرومانية المعمارية ، كالقناطر المعلقة مثلاً . وقد استخدم الحجر مادة للبناء في العمارة الشآمية ، وكذلك في العمارة

القوطيـة الغربيـة بأسبانيـا . وكثيراً ما نجد ترتيـب الحجارة المنحوتة على التعاقب واتخاذها رباطاً ماثلاً في العمائر الرومانية في الشرق والغرب ، وقد ورثت ذلك من العمائر اليونانية . وعممت العمارة القوطية الغربية استخدام عقد حدوة الفرس ، وتوجد نماذج منه في العمارة الرومانية والاسلامية الشرقية ، وإن كانت أقل منها في شبه الجزيرة . وكان الاستخدام المتبادل للحجر والآجر في سنجات العقود شائعاً في العمارة الرومانية ، وعنها نقلته العمارة البوزنطية .

وتكمن أصالـة مسجد عبد الـرحمن الأول في خطة بنائه وتنسيقه العام بما يضمه من مقصورات متوازيـة عديـدة وزيـادة المقصورة الـوسطى في الحجم عن الأخريـات كما هو الحال في المساجد الشرقيـة ، وربما يكمن ذلك أيضاً في عضائد الجدار ، بل لعله يكمن في الحزوز المدَّرجة التي تتوجها .

وقد اقتضى ازديـاد السكـان في قرطبة في عهد عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ = ٨٢٢ ـ ٨٥٢ م)

توسيع المسجد ، وامتدت رقعة المقصورات جنوباً بهدم المحراب ، ونقب جدار القبلة . والجزء الذي أضيف يتبع خطوط البناء القديم ، ولكننا نجد من بين العدد الـكبير من التيجان التي أخذت من العمائر الأقدم منه أحد عشر تاجاً نحتت بإتقان لهذا الغرض واستلهم في نحتها النماذج القديمة المأثورة . وهناك أربعة تيجان من المحراب نقلت بعد الى مسجد الحكـم الثاني ، وهذه التيجان الأخيرة لا تقلّ إتقاناً عن التيجان الرومانيـة ، وهي تدل على وجود مصنع يعمل به نخبة من الصناع المهرة . وبدأت هذه الأعمال عام ٢١٨ هـ (٨٣٣م) وأول صلاة أقـيمت فـي المسجـد قبـل بنـاء المحراب الجديد كانت سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) ، ولكن البناء لم يكن تم عند وفاة عبد الرحمن الثاني ، وقد أكملـه ابنه وخلفه محمد الأول عام ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) وهو تاريخ يظهر في نقش على باب القديس اسطفان الذي استلهم الفنان في زخارفه المستدقة ولا شك موضوعات الفسيفساء الرومانيـة ، وهذه الـزخارف من الـطراز

البوزنطي .

وترك عبد الـرحمن الثالـث (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ = ٩١٢ ـ ٩٦١ م) في المسجد الجامع تذكـاراً لحكمه الطويل المجيد بتشييد مئذنة أثرية جديدة سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) مربعة القطاع مثل المآذن الشامية .

وبويع عبد الـرحمن الثالـث بالخلافة عام ٣٢٦ هـ (٩٣٦ م) وبدأ في بناء المدينة الملكيـة المعروفة باسم مدينة الـزهراء عند سفح الشارات على مسيرة أقل من خمسة أميال من قرطبة ، وسار العمل في تشييدها قدماً حتى عام ٣٦٥ هـ (٩٧٦ م) ، وهي مدة قدرها أربعون عاماً بلغت فيها عظمة الخلافة الأندلسيـة وسلطانها ذروتها ، كما تشهد بذلك الأطلال المشوهة لقصور هذه المـدينة مقر البلاط وعمال الحكـومة ، وتوسيع مسجد قرطبة بناء على ما أشار به الحكـم الثاني .

وأجزاء مدينة الـزهراء التي كشف عنها حتى الآن هي أطلال المساكن المبنية بالحجر والـدواوين وقاعات

الاستقبال . وتقع هذه القاعات في نهاية أفنية وتتألف من عدة مقصورات متوازيــة تفصلها عقود على هيئة حدوة فرس قائمة على أعمدة على نسق البازيليكـا الـكبيرة الشائع في الشرق ، وفي سبيل زخرفتها تأججت نفسا الخليفتين بنار الـطموح ينشدان إقامة عمائر لا نظير لها بذخاً وفخامة ، فجلبا لتحقيـق ذلك موادَّ وصنّاعاً مَهرة من الطرف الآخر للبحر المتوسط . ولقد زالـت الأسطح والسقوف ، ذلك أن مدينة الزهراء نهبت وأحـرقت عدّة مرات في السنوات الأولى من القرن الحادي عشر ، واستخدمت فيما بعد محجراً حتى عهد قريـب ، ولـكن لا يزال فيها جانب من الأوجه الحجريـة والرخاميـة لجدران كثير من الحجرات ، والعديد من الأعمدة والتيجان من المواد نفسها ، ورُصُفٌ من الحجر والرخام والآجر . ووجه هذه المباني الرائع الـزخرف عهد به الى صنّاع مَهرة بعضهم جاء من شرقي البحر المتوسط ، صحيح أنهم كانوا على درجة مختلفة وأساليب فنية متباينة في أشغال

الحجر والرخام ، بيد أنهم كانوا بصفة خاصة عارفين بالخصائص العامة للنقوش البارزة ذات البعدين التي تعتمد على وحدات زخرفيــة نباتيــة (هناك بعض الوحدات الزخرفية الهندسية البسيطة القليلة التي ترجع الى أصل بوزنطي)ومعظمها لم يبعد كل البعد عن موضوعات الكـروم وشوك اليهود التي اشتقت منها . وهناك قاعة فخمة اكتشفت عام ١٩٤٤ ، والعمل يجري حاليًّا في إعادة بنائها ، لأنه وجد بين أطلالها كثير من النقوش البارزة من الأوجه المـزخرفة للجدران الداخلية ، وقد زخرفت منذ عام **٣٤٢** هـ الى **٣٤٥** هـ (**٩٥٣** - **٩٥٧** م) .

واشتغل الصناع المهرة أنفسهم الخارجون من قصور الـزهراء في توسيع المسجد الجامع في قرطبة ، وهذا العمل الذي شرع فيه الحكم الثاني قد بدىء في تنفيذه عام **٣٥٠** هـ (٩٦١ م) ، وأكمل الجانب الرئيسي منه عام **٣٥٥** هـ (٩٦٦ م) ، وكـان لصناع الفسيفساء الذين طلبوا من امبراطور بوزنطة فضل في زخرفته ؛

وهناك أثر شرقي ملحوظ في القبوات الأربع للعقود المتقاطعة في الامتداد على الرغم من أنه لم يكتشف بعد في الشرق نموذج يضارعها ثم في تاريخ أقدم منها .

والراجح ان الزيادة في ارتفاع جدران بعض النوافذ لإفساح المجال لإقامة مشكاوات قد أخذ عن مساجد افريقية في القرن التاسع على الرغم من أن عقود هذه المساجد من أصل بوزنطي . والعقود المتقاطعة بالتساوي في المسقط الأفقي وليس في الفراغ في مخرمات مكشوفة تحمل القباب بأسلوب فني في الانشاء عبقري بارع . وبعض العقود المتوجة من أصل عباسي ، وهناك أيضاً عدد من العقود المنقوصة . وأصبحت العقود المتوجة منذ ذلك الوقت تتصل بعقود متقاطعة ، وهذا هو أحد الموضوعات المحببة في الفن الأندلسي ، وكانت تستخدم للزخرفة فحسب جرياً على عمل شائع في الفن الاسلامي بأسره غير أنه بلغ أوجه في الأندلس .

وفي هذا التوسع الذي يرجع الى عهد الحكم الثاني

والذي يعد في الواقع مسجداً جديداً ملاصقاً للمسجد الأصلي ، أشكـال زخرفيــة خارقة في روعتها ممتزجة ببريــق وهاج من الألــوان تغطي الجدران والقبوات المصنوعة من الفسيفساء الجيــاشة بالحيــاة ، مع « توريقات » عربيـة نُحت معظمها في الصخر وطُلي مهدُها باللون الأحمر وعليه نقوش بضروب أخرى من اللــون الأزرق ، ورخام معرَّق في الأعمدة وقواعدها . ومسجد الحكــم الثاني ـ مثل قاعة عبد الـرحمن الثالــث في الـزهراء ـ شاهد على فن يستخدم موارده الى أقصى حد ، فن بلغ الذروة ، فن يعبّر عن عظمة الخلافة في قرطبة تعبيراً لا نجد له نظيراً في الغرب المعاصر له .

والتوسيع الثالث والأخير الذي طرأ على هذا المسجد الجامع هو الذي شرع فيه المنصور الواسع النفوذ وزير هشام الثاني ، وقد نفذ بين عامي ٣٧٧ و ٣٨٠ هـ (٩٨٧ ـ ٩٩٠ م) . وحافظ على وحدة الكل بتكرار دعامات العقود والعقود المتشابكــة وبنائها على غرار

المنشآت الأصلية دون إضافة أية سمة جديدة ، ولكن هذا التوسع جاء دون الأصل فخامة وطرازاً . وتكشف الأبواب عن عمل بذل لتوحيد الأساليب الفنية المختلفة للزخرفة التي تظهر بوضوح في مدينة الزهراء ، وإن كانت النتيجة تثير في النفس الكآبة والملل .

ولا تزال هناك آثار قليلة للعمل الذي تم خلال عهد ملوك الطوائف في السنوات الأخيرة من القرن الخامس الهجري (القرن الحادي عشر الميلادي) . وتدل النصوص والآثار التي بقيت على أن التقسيم ، في المساجد الى مقصورات عمودية على جدار القبلة مع التوسل بعقود على هيئة حدوة فرس مُقامة على أعمدة ، يتكرر . وقد جنح أمراء الطوائف الى تشييد القصور أكثر من جنوحهم الى إقامة دور للعبادة ، ذلك انهم عجزوا عن مجاراة أسلافهم حكام الأندلس الموحدة في السلطان أو في الثراء ، بيد أنهم حاولوا محاكاتهم ، على الأقل من ناحية المظهر ، في قصورهم الفاخرة . وشيدوا ، بدل الجدران المبنية بالحجر الصلد ، جدراناً

بنيت بالطين والآجر ، وحلت محل أوجه الحجر والرخام المزخرف بطريقة التوريق والزخرفة في الجص ، واستبدل بالأعمدة الرخامية أعمدة خشبية كما يرى في قصر القصبة بمالقة . وهكذا يخفي تعدد الألوان فقر الداخل تحت نقاب زائل من البذخ والأبهة . وكان النقص في الفخامة والمتانة والافتقار إلى العظمة المعمارية لا يعوضهما المظهر الجميل اللطيف الذي اتسمت به مباني القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) فحسب ، بل يعوضهما أيضاً إدخال الماء الجاري في القاعات والأفنية ، وغرس النباتات في الأفنية ، ولا شك أن ذلك كان بتأثير الشرق ، عن طريق إفريقية فيما يحتمل .

والفن الزخرفي الذي كان ينشد اخفاء الفقر في بناء هذه القصور كان هو قد صحبه. تطور نحو الفن الباروكي ، وهو فن إسباني في جوهره ، وذلك بتحويل العناصر المعمارية لقرطبة ومدينة الزهراء الى عناصر أخرى زخرفية بحت تقوم على أشكال متشابكة

ومعقدة وزخارف غزيرة .

والقصر الذي بناه المقتدر بن هود (٤٤١ ـ ٤٧٤ هـ = ١٠٤٩ ـ ١٠٨١ م) بجوار سرقسطة مباشرة يمثل خير تمثيل الفن الذي عرف عن عصر ملوك الطوائف .

وكـان القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ـ أي في الفترة التي بسط فيها المرابطون والموحدون سيادتهم على الأندلس ـ من أخصب العصور في الفن الاسلامي المغربي ، وهو في الوقت نفسه من العصور التي حدث فيها أعظم تمثل للأشكال التي خرجت من شرقي البحر المتوسط .

وظل المرابطون ـ وهم أولئك البدو البربر من افريقية الذين خلا وفاضهم من التقاليد الثقافية ـ على هامش النزعة الفنية ، بيد ان الاتحاد السياسي بين الأندلس وبلاد البربر فترة تربو على قرن (القرن السادس = الثاني عشر الميلادي ، والسنوات الأولى من القرن السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي) ، وهو الاتحاد الذي تم أولاً في عهد المرابطين ثم في عهد

الموحدين ، انتهى الى انتشار الفن الأندلسي عبر مضيق جبل طارق الى أقاليم تغلب عليها الحضارة الريفية وليست فيها مراكز حضرية كبيرة (انظر مادة « المرابطون » ، القسم الخاص منها بالفن) .

ويكشف بناء مساجد المرابطين ما طرأ عليها من تغييرات بالقياس الى المساجد الأندلسية الأولى ، ولعل هذا كان نتيجة لتأثير بلاد ما بين النهرين . فبدلاً من الأعمدة ـ التي كانت حتى ذلك الوقت تفصل المقصورات ـ بنوا عمداً من الآجر ، وأدى هذا الى ازدياد رسوخ البناء وأتاح لهم فرصة الاستغناء عن العروق الخشبية ، وان كان هذا قد أدى أيضاً الى فقدان في مساحة الفراغ وضعف في وضوح الرؤ ية . ويبدو المصلّ المشيَّد على دعامات من الآجر دائماً كئيباً ومملاً إذا قورن بالمصلّ الذي يقوم على أعمدة .

ولم يبق في الأندلس مسجد واحد من المساجد التي بناها المرابطون . ولعل المساجد الجامعة في تلمسان والجزائر ، الخالية أصلاً من الزخارف ، قد شيدت في

السنوات الأخيرة من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) قبل أن يصل التأثير الأندلسي الى الشاطىء الافريقي . وقد حدث هذا في عهد علي بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ = ١١٠٦ - ١١٤٣ م) ، فقد ازدان خلاله المسجد في تلمسان بزخارف أندلسية رائعة وغزيرة تكسو وجه المحراب والجدران وقبة المقصورة السابقة له . وقد أكملت هذه الزخرفة في قول نقش بخط النسخ هو جزء من هذه الزخرفة ، سنة ٣٥٠ هـ (١١٣٦ م) .

وقام علي بن يوسف حوالي عام ٥٢٩ هـ (١١٣٥م) بتوسيع مسجد القرويين في فاس ، وهو لا يزال محرَّماً على غير المسلمين ، وفي هذا المسجد عقود متقاطعة من الواضح أنها من أصل قرطبي وقبوات من المقرنصات (في الأسبانية mocarabes) يرجع أصلها الى بلاد الفرس او العراق ، وهي تعبر بعض المقصورات . والحق ان ما تتَّسم به هذه الزخرفة من كمال عجيب يكشف عن أن هذا العمل لم يكن

التجربة الأولى في ممارسة هذه العناصر المجلوبة من الخارج .

وخير ما يمثل أسلوب المرابطين في الزخرفة هو قبة البروديين بمراكش ، ولعلها شيدت بين عامي ٥١٤ و ٥٢٦ هـ (١١٢٠ - ١١٣٠ م) . والجزء الأوسط من هذا البناء الصغير المستطيل الشكل تغطيه قبة صغيرة من الآجر المقوّس. وفي داخل القبة ثمانية عقود متقاطعة على هيئة تشبه عقود القبة التي تغطي المقصورة التي قبل المحراب في مسجد قرطبة . والعقود مختلطة الخطوط في هذا النموذج المراكشي ، وتتألف من تيجان وقِسّي وزوايا قائمة ، والأوجه التي تضمها بين مستويات عقودها يكسوها - مثل كل الأوجه الأخرى تقريباً - توريق دقيق من الجص يحيط بمراوح كبيرة . وهذا صنع أندلسي يتميز بفخامة فوق التصور وخيال خصيب ، وهو يعبر بأسلوب بليغ عن النزعة المناهضة للكلاسية الى التجزئة والاسراف في الزخرف ، وهي النزعة التي تنبثق في مواسم في مجرى تاريخ الفن

الأندلسي .

أما الموحدون الذين كانوا مثل أسلافهم يفتقرون الى التقاليد الثقافية ، تحكمهم نزعة الزهد التي تملكتهم وأنكرت كل ترف وكل إسراف بما يتفق مع حركة تهدف الى احياء ما كان عليه الاسلام في أول عهده من طهر ونقاء ، فقد أثرت نزعتهم هذه في التطور الفني بوضع قيود صارمة على الزخرفة ردتها الى ضروراتها الجوهرية ، وجعلت لها نطاقاً محدداً تحديداً دقيقاً يقوم على أسس عامة بسيطة (أنظر مادة « الموحدين » ، القسم الخاص بالفن) . ولم يبق مصلًّى واحد مما بناه الموحدون في الأندلس ، ولذلك فإننا لا نعرف هل امتدت هذه الخصائص اليها أيضاً ، وبقايا المسجد الجامع في إشبيلية الذي أُكمل بناؤه في عهد يعقوب المنصور (٥٧٢ ـ ٥٩٤ هـ = ١١٧٦ ـ ١١٩٨ م) تحملنا على أن نفترض أنها تكشف عن زخارف أفخم من الزخارف التي أبقى عليها الزمن في المغرب .

وأثر الموحدون في التطور الفني في نواحٍ أخرى أيضاً ، فقد ألهمهم ذكرى ما كانت عليه الخلافة القرطبية من عظمة ماثلة في عمائرهم فشيدوا مساجد ضخمة رُوعي فيها تناسق النسب وحسن التخطيط ، ومآذن متينة عالية ، وأبواب مدن تتسم بالكبر ، وأقواس نصر حقيقية تكريماً لأسرتهم المالكة .

ويظهر في بقية قصور المرابطين والموحدين طرازان من الأفنية بلغا فيما بعد درجةً معجبة من التطور في فن غرناطة : الطراز الأول هو الفناء ذو السبيلين المستعرضين يحدثان أربعة أحواض مربعة للنباتات وتبرز على الجوانب القصيرة جواسق (القصر الصغير في مرسية القديمة) ، والطراز الثاني هو الذي يضم رواقاً واحداً على جانب واحد أو جانبين منه (الحبس في قصر اشبيلية) .

وتستخدم العمارة العسكرية للموحدين في الأندلس خططاً مأخوذة من العمارة البوزنطية لم تكن قد عرفت بعد في المغرب ، كالأبواب المقوسة (أسوار بطليوس

وإشبيلية ولبلة) ، وأبواب المدينة الضخمة ، والأبراج المضلعة (قاصرش وبطليوش وإشبيلية) والأبراج الخارجة عن الأسوار (قاصرش وبطليوس وإستجة) . ووصل من الشرق مع المقرنصات الخط النسخ (زخارف جصية في موروور بغرناطة ، وفي القصر الصغير بمرسية) خزف مزجج أو مبرنق استخدم للزخرفة المعمارية من الخارج . وأول نموذج عرف من ذلك في الأندلس يوجد في برج الذهب بإشبيلية (٦١٧ هـ = ١٢٢٠ - ١٢٢١ م) .

وبعد سقوط إمبراطورية الموحدين كانت آخر قاعدة للمسلمين في أسبانيا هي مملكة غرناطة الصغيرة التي أسست قبل منتصف القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي) بقليل وقصر الحمراء الذي يحظى بشهرة عالمية هو وجميع العمائر الأخرى الباقية تقريباً من هذا العهد الأخير ، وهي لا ترجع الى تاريخ أقدم من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) .

والفن المأثور عن بيت بني نصر - أو فن غرناطة - هو

مرحلـة أخيرة مشرقة للاسلام في شبه الجزيـرة احتفظ بمركـزه الى حد ما على هامش الفن الـرسمي لأسرة المـوحدين ، وقد أثراه فن المـوحدين وبعض الفنون المجلوبة من الشرق دون اغفال التغيرات التي طرأت عليه مع التقدم الجامد للزمن . وهذا الفن يمثل أيضاً في مظهره الزخرفي احياء التقليد الـوطني في استخدام الـزخرفة الـكثيفة المسطحة الـرقيقة بعد انحراف المـوحدين القصير الأمد عن ذلك ؛ ونحن لا نعرف مدى انتشار هذا التقليد في الأندلس .

وقد زين صناع غرناطة المهرة الأيام الأخيرة لحضارة مشرفة على الزوال بأبدع نماذج لما تستطيع أن تأتي به عبقريـة الإنسان وفنه في مجال الـزخرفة ، ذلك أنهم صنعوا بمواد فقيرة هشة كتلاً ضخمة قويـة بسيـطة وأجراماً معمارية بحتة مثل برج قمارش وباب العدل في الحمراء ، وانشاءات لطيفة منسقة تتَّسم بالأصالة مثل فناء قصر البركة ، وأروقة داخلية خططت بمهارة مثل تلك التي رتبت على التدريج من بهو الأسود الى قاعدة

درجة في القصر الملكي بغرناطة ، وقد شيدوا في الوقت نفسه تحصينات أهم من تحصينات الموحدين الأندلسية التي أبقى عليها الزمن . وازدادت غرناطة ثراء بالعمائر العامة ، من دور وقصور منمقة بفن شائق بديع . وكان لكل مبنى - من المساكن المتواضعة الى القصور الملكية التي تكتنف المدينة- أفنيته ونافوراته وأحواضه وأرصفته المكسوة بالقرميد الزاهي اللون وزخرفته الجصية وسطوحه الخشبية التي ضمت بمهارة .

وفي قصر الحمراء الملكي - الذي احتفظ به على نحو عجيب على الرغم من رهافة بنائه الشديدة - يتجلى فن غرناطة ويكتسب خصائصه المتسمة بالفخامة والعظمة . فبهو البركة وبهو الأسود اللذان شيدا في منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) هما تطور على الولاء للأنماط ذات الأروقة المعمدة التي أقيمت على جوانب قصيرة ولها سبيلان مستعرضان مما أثر عن عهد المرابطين . وتحدث المقرنصات في قصر الحمراء قبوات مركبة تعطي

المنحنيات الخارجية للعقود وتقوم بدور الحدائر وتغطي وجه بعض التيجان . وفوق الـوزرات المصنوعة من اللُكاط البراق (فسـيفساء من القرميـد الملـون) ، نجد جدران الحجرات قد كسيت بحشوات جصية تبدو كالسجاجيـد ، وقد اشتملـت هذه الحشوات على وحدات زخرفيـة نباتيـة (أوراق منقسمة الى وريقات أصغر حسب تقاليد المرابطين ، وأخرى ناعمة مأخوذة من زخرفة المـوحدين) مختلـطة برسوم هندسيـة مركبة ونقوش بالخطين الكوفي والنسخ . وثمة ثروة هائلة من الزخرفة في قصر الحمراء ، بيـد أن قلـة عدد النقوش البارزة والترتيب المنسق على الجدران داخل الحشوات يتحاشى أي إحساس بزحمة زخرفها زحمة تخل بنسقها ، فالكل متناسق خفيف الظل يسر الناظرين .

وكانت غرناطة في الوقت الذي كانت تقام فيه هذه القصور تثرى ببناء سلسلـة من العمائر ذات الشأن : الفندق (Alhondiga Nueva) والمدرسة التي أكملت سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) والمـارستان ، أي مصحة

المجانين (٧٦٧ ـ ٧٦٨ هـ = ١٣٦٥ ـ ١٣٦٧ م) .
وهذه المباني الثلاثة ـ ولم يبق منها الا الأول ـ تطابق خطط البناء الأجنبية ولكن شكلها يمثّل الطراز المحلي .

وفي النصف الأول من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) الذي يقترن بالاضمحلال السياسي الأخير لغرناطة نجد فن غرناطة قد عجز عن التزويد بمدد جديد من شرقي البحر المتوسط وأنهك قواه النزوع الى الرفاهات واللطائف المعجبة وإن كانت عقيمة ، ذلك أنه أخذ يكرر نفسه ويعيش في نطاق الماضي فحسب ، فأصبح بذلك يدور في قالب فارغ . وظل هذا الفن قائماً في صورته المتحجرة هذه بالمغرب عدة قرون ، ونكاد نقول إنه لا يزال يعيش على هذا النحو الى اليوم .

ولقد عمدت التجارة ـ التي كان معظمها في يد اليهود والشآميين ـ الى أن توزع في جميع أرجاء الأندلس الكثير من المنتجات والفنون الزخرفية والصناعة المعروفة في الشرق ، وكان نقل عدد منها

يسيراً . وفي عهدَي عبد الـرحمن الثاني وابنه هشام الأول ، غلبت نزعة الى الترف الـرفيع والبهرج في قرطبة بتأثير بغداد وبوزنطة . وسرعان ما نمت في الأندلس صناعة المنسوجات والمجوهرات ومنتجات العاج والخزف والأثاث . . إلـخ ، منتجات تقلـد المنتجات المستوردة لإرضاء مطالب الجمهور الغفير من العملاء في بلاد المسلمين والممالـك النصرانيـة في شبه الجزيرة وشمالي جبال البرانس . وكانت النسخة أحياناً مطابقة للأصل مطابقة يصعب معها القول : هل خرجت بعض الأصناف من بلاد واقعة في الـطرف الآخر من البحر المتوسط ام صنعت في الأندلس ؟ ومن المستحيل ، في حالة المشغولات البرونزية المختلفة على النمط الفاطمي ، أن نقطع : هل صنعت في مصر أم في الأندلس . ولا نستطيع أن نقول على وجه اليقين : هل خرجت بعض المصنوعات من مصانع العباسيين أو من مصانع الأندلس الا بعد فحص دقيق كل الدقة .

ولم يهن نشاط المصانع الأندلسية في القرن الخامس

الهجري (الحادي عشر الميـلادي) ، ولـكن ذلك حدث في القرن التالي فحسب عندما وضع تزمت الخلفاء المـوحدين الأوائل قيـداً على ذلك وخاصة فيما يتصل بالمصانع السلطانيـة . وعلى النقيض من هذا وصلت الحرف الصناعية الى ذروة من التطور والروعة في مملكة غرناطة على الرغم من صغر رقعتها . ولـم يقتصر أمر هذه الصناعات على سد حاجات بلاط عرف بالتبذيـر والاسراف ، بل ان تصديـر منتجات أرباب هذه الحرف ساعد على اعانة عدد من السكان كبير كانوا مضطرين الى أداء جزية باهظة الى ملك قشتالة .

وكان الأثاث الديني في الأندلس ـ ابتداء من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عـلى الأقل ـ على درجة من الفخامة والاتقان تفوق التصور . وقد كتب مؤرخ في القرن الثامن الهجري (الـرابع عشر الميـلادي) : « إن أمهر أرباب الحرف متفقون في الـرأي على أن منابر مسجد قرطبة ومسجد الـكتيبة في مراكش هي أبدع المنابر على الاطلاق . والمشارقة ـ كما

يتبين من منشآتهم - ليسوا خبراء في الحفر على الخشب » . وفي روايـــة للادريسي أن منبر المسجد الجامع في قرطبة لا نظير له في العالـم ، وقد صنع في عهد الحكم الثاني . ويوصف بأنه نموذج لا يبارى لفن صنع الأثاث الرفيع المطعَّم بالعاج والخشب الرقيق .

أما منبر الـــكتيبة ، فقد صنع في قرطبة بين عامي ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) و ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) . وهو مكسو بزخرفة رقيقة تتألف من أشكـــال هندسيـــة متشابكة في ألواح مطعَّمة مكونة من قطع خشبية صغيرة ثمينة ذات ألـــوان مختلفة تحف بها قشرة رقيقة من العاج ، بينما تملأ المحفورات الخشبية النفيسة الفراغات بين الخطوط الزخرفية المتشابكة .

ومن أعظم الأمجاد الفنية للخلافة علب المجوهرات والقوارير المصنوعة من العاج (انظر هذه المادة) التي يجب البحث عن سوابقها في مجال الثقافة البوزنطية . وكانت هذه الأدوات تصنع في مصانع البلاط في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) والنصف الأول من

القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، والتوريقات هي السمة الغالبة في زخرفتها ، على الرغم من أنه لم يكن هناك نقص في رسوم الحيوانات والكائنات البشرية التي ترجع أصولها في بلاد ما بين النهرين الى عهود سابقة على الاسلام .

وكذلك حققت صناعة الخزف تطوراً فريداً في الأندلس (انظر مادة « الخزف ») ، وكان يصنع في عهد الخلافة ما يعرف باسم « خزف مدينة الزهراء » أو « خزف مدينة إلبيرة » ذلك أن عدة نماذج منه وجدت بين أطلال هاتين المدينتين . وكانت الزخرفة على خلفية بيضاء تتكون من أشكال مرسومة باللون الأخضر (أكسيد النحاس) في إطار أسمر داكن (من المنجنيز) . وهذا الخزف من أصل بوزنطي ، ولكنه تطور مستقلاً بنفسه في الأندلس .

وورد من العراق وإيران القاشاني الذهبي الثمين ، وهناك شاهد من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) على صناعته في الأندلس ، ومع ذلك

قد تكون صناعته هناك أقدم من هذا التاريخ . وبلغت الأصول الفنية لهذا الترف أقصى درجات تطورها وكمالها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) بإخراج منتجات فريدة في شكلها ونفاستها مثل زهريات ملقا الرائعة التي تفخر بها تلك المتاحف والمقتنيات التي تشمل نماذج نادرة أبقى عليها الزمن . وبعضها لا نجد عليه الا زخرفاً من الذهب ، وفي البعض الآخر تمتزج الزخرفة الذهبية باللون الأزرق . ولدينا كسر من الخزف من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) تفصل بين ألوانها أُطر من صفائح رقيقة (cuerda seca) يبدو أنها صناعة أسبانية ، ومن جهة أخرى هناك فخار منقوش غير مزجج يبدو أنه لم يظهر الا في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) .

وهناك عدة نماذج من « الديباج » المشهور استوردت من بغداد وهي تدل على أوج ازدهار صناعة الحرير في القرون الوسطى ، وهذه النماذج محفوظة في

أسبانيا . ويرد ذكر أقمشة شآمية (sirico) وبوزنطية (Grecisco) في وثائق عديدة عن أسبانيا النصرانية في القرنين الرابع الهجري (العاشر الميلادي) والخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وهي تدل على أن الأقمشة الفاخرة الصادرة من الشرق قد وصلت الى أسبانيا .

وكان في إشبيلية وقرطبة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) مصانع تنتج « الطراز » أي الأقمشة الحريرية والأقمشة المقصبة المصممة خصيصاً لصنع أردية تلبس في الاحتفالات . وكانت الأقمشة والأردية تعد من أثمن الهدايا . وحظيت أنوال المرّية بشهرة كبيرة في عهد المرابطين . وفي خلال ذلك العهد كان التقليد الساساني المتبع في الزخرفة لا يزال سارياً ، وكان يتألف من دوائر متماسة وتصاوير لحيوانات منسقة داخلها في تناسب على الأصول الفنية والأسلوب المتبعين في القصبة العباسية . وحرّم ملوك الموحدين « الطراز » واختفت الدائرة آنذاك من

الأقمشة الحريرية ، وحلت محلها زخارف هندسية وزخارف مكونة من خطوط مستقيمة ومنحنية ، ومتوازيات أضلاع وأشكال كثيرة الأضلاع على هيئة نجمة . . . إلخ . وأخيراً حدث منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) أن غلبت زخرفة تقوم على شرائط متوازية تحمل عناصر منقوشة وهندسية ، وتعد الأقمشة الحريرية في غرناطة من هذا الطراز .

وقد أشرنا من قبل الى المشغولات البرونزية في عصر الخلافة ، من مصابيح الى ثريات وقناديل وميازيب على هيئة حيوانات ، وهاونات ومواقد للبخور إلخ . . كما أشرنا الى صعوبة إثبات منشئها الأصلي بسبب مشابهتها للمشغولات البرونزية الفاطمية . ويتضح كمال الأصول الفنية للأشغال المعدنية في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) من رقائق البرونز المحفورة والمنقوشة التي تغطي الأوراق الخشبية في باب رواق المسجد الكبير بإشبيلية ، ومقارع أبوابه

الفخمة المصنوعة من البرونز المصبوب أو المنقوش التي لا تزال موجودة في نفس البقعة التي صنعت فيها .

وقد احتفظت المتاحف والمقتنيات بنماذج من أساور فضية مطروقة يرجع تاريخ صنعها الى عهد الخلافة . والأسلوب الفني للطرق أقل شيوعاً في صياغة الذهب التي تغلب فيها المصوغات المزركشة المخرمة وخيوط سلكية تكون تركيبات مرصعة بالأحجار الكريمة أو قطع الزجاج ، وهذا الأسلوب الفني بقي حتى الأيام الأخيرة في مملكة غرناطة ، وهناك عدة سيوف من هذا الطراز مثل سيف ابي عبد الله المحفوظ في المتحف الحربي بمدريد ، وهو رائعة من روائع الصياغة يتميز برشاقة متناهية ، مقبضه مصنوع من العاج ومطليّ بالفضة المذهبة وفيه زخرفة تقوم على الصياغة المزركشة ، والتطعيم بالمينا الكثيرة الألوان المثبتة في إطارات .

] ل . تورس بالباس L . Torres Balbas

تاسعاً - الأدب والثقافة الاندلسيان

١ - تعد العربية الأندلسية التي يتحدث بها الناس في شبه جزيرة إيبيريا أفضل اللهجات العربية التي جاءت بعد اللغة الفصحى بالنسبة لفترة القرون الوسطى . وفي تاريخ متقدم يرجع الى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كتب العالم اللغوي الزّبيدي الاشبيلي رسالة عن أخطاء الكلام التي يقع فيها العامة بالأندلس .

وفي منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)نظم ابن قُزْمان (انظر هذه المادة) بعض أزجال (انظر هذه المادة) حافلة بالفوائد اللغوية والاجتماعية ، وقد بقي الجانب الأكبر منها ، كما نظم المتصوف الششتري (انظر هذه المادة) أزجالاً يعرف

الناس منها دواوين عديدة. ومما يؤسف له أن طبيعة الموضوعات التي تناولتها هذه الأزجال المنظومة باللهجة الدارجة تدل على أنها أقل أهمية من الموضوعات التي تناولها الزجال السابق . وفي منتصف القرن الثالث عشر ايضاً أدت إعادة غزو النصارى لمملكة بلنسية ومتطلبات الدعوة الدينية بين السكان المسلمين الى وضع مفردات لغوية كثيرة لا يعرف من ابتدعها ، وذلك باللغتين العربية واللاتينية ، واللغتين اللاتينية والعربية ، وقد نشرت هذه المفردات . وفي نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) أدت إعادة غزو مملكة غرناطة الى أن يجمع الراهب بدرو دي ألكالا بدوره شعراً ومفردات لغوية ، وقدّم المفردات العربية في نسخة مكتوبة بالحروف الرومانية ، وهذا المصنف الأخير قيم بصفة خاصة ، ولكن النصوص المنثورة من هذا الشعر مخطئة في كثير من الأحيان .

وهذه هي المصادر الأساسية الوحيدة ، ومع ذلك

توجد مصادر ثانوية كثيرة وهي : ناظمو أزجال أقل من هؤلاء شأناً ، وعدة « خرجات » من الموشّحات (انظر هذه المادة) . أما بالنسبة للنثر فهناك وثائق في المحفوظات ورسائل خاصة وقوائم حسابية إلخ وأخيراً يشير مصنفو الكتب الفنية المحررة باللغة العربية الفصحى فيما يتعلق بالمفردات اللغوية الى أسماء عديدة باللهجة الدارجة : وهم مؤرخون وجغرافيون وأطباء وعلماء نبات وعلماء زراعة ، ومصنفون في الحسبة ... إلخ .

وثمة مبرر للافتراض بأن العربية الأندلسية لا بد ان تكون قد خرجت من عداد اللغات الحية حوالي نهاية القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ولعل تاريخ زوالها يختلف باختلاف الولايات . وعلى أية حال فإن العرب الأندلسيين الذين اخرجوا من أسبانيا ووصلوا الى تونس ومراكش حوالي عام ١٦١٠ كفّوا ، فيما يبدو ، عن الحديث باللغة العربية وأخذوا يتحدثون باللغة الأسبانية . ومن ثم تكون الفترة التي

كان الناس فيها يتحدثون بالعربية في شبه جزيرة إيبيريا قد استمرت ثمانية قرون . وهذه المدة الطويلة ، مع تقسيم البلاد الى وحدات طبيعية وسياسية منفصلة ، الى جانب اختلاف طبائع السكان العرب ، كل هذا كان حرياً فيما يبدو بأن يساعد على تكوين لهجات عربية قائمة بذاتها كما حدث داخل إطار اللغة الرومانية ، ولكن الظاهر أن هذا لم يحدث . حقّاً إن الوثائق التي في حوزتنا متباينة من حيث الزمن والمكان ، وهي لهذا تقف حجر عثرة في طريق عقد أي مقارنة تستحق الجهد . وليس في الامكان القيام بأثر من محاولة التمييز بين لهجات الجنوب (اشبيلية وقرطبة وغرناطة) ولهجات الشرق (بلنسية ومرسية) ولهجات الثغور (أراغون) . وليس في حوزتنا فيما يختص بطليطلة الا وثائق تسجيلية مدبجة في صيغة متخلفة أشد التخلف من اللغة الفصحى .

وصفوة القول ان العربية الأندلسية ، بقدر ما نستطيع أن نقول ، قد احتفظت فيما يظهر بدرجة عالية

من التجانس . ولكن يجب الا ننسى ان وثائقنا الوحيدة ترتبط بلهجات أهالي المـدن ، ومن المحتمل أن اللهجات الريفية ـ التي يتحدثها الناس الذين كانوا أقل نزوعاً الى التنقل من سكـان المـدن ـ قد تكـون أكثر تفاوتاً .

وعلى الرغم من أن العربيـة الأندلسيـة قد اندثرت حوالي نهايـة القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) من حيث هي لغة حديث ، فإنها بقيت في القصائد التي لا تزال تستخدم « كلمات » للألحان الأندلسية التي يعزفها ويغنيها سكان المـدن من تونس الى مراكش .

(٢) الخصائص العامة :

١ - الصوتيات

الحروف الساكنة

كما هو الحال في جميع اللهجات التي جاءت بعد اللغة الفصحى ، يمثل الحرف الجانبي (ض) صوتياً بحرف (ظ) او استثناءً بحرف (د) . وبقيت الحروف التي تنطق من بين الثنايا : ت ، د ، ذ ، - حتى أواخر القرن الخامس عشر على الأقل -عرناطية. ويظهر أن حرف ج كان أصلاً حرفاً احتكاكيّ ج = ز، وفي ابن قزمان ومفردات بلنسية لا تدعم أداة التعريف ، أما في مفردات غرناطة فتدغم ، وهي في

هذه الحالة يمكن أن تطابق النطق بحرف « ثـ » أو مع ترقيــق العنصر الإطباقي الأول . وفيما يختص بحرف القاف هناك شاهد على وجود « قاف مرققة » في النطق الأسباني ، ولــكننا لا نعرف بالضبط ماهيــة هذا « الترقيق » . والى جانب الحروف الساكنة في العربية الفصحى توجد في العربية الأندلسية الحروف التالية ، وهي عادة في الكلمات المستعارة من اللغة الرومانية (أو تطورات من الطبقة الدنيا) : حرفا پ و چ اللذان يكتبان بالعربيــة على التعاقب بّ و جّ ، وحرف G (روماني قديم أو إيبيري قوطي غربي) يرسم : غ ، وهذا يخلق مشكلة لعلماء اللغة الرومانية . وهناك نزعة تستحق الذكر ، تلاحظ بصفة خاصة في حرف ـح ، إذ يحذف حرف ن الأخير بعد حرفي « أي » مثل : يِ = « أين ؟ » ، وبَى = « بين » ، وشهرَي ، أي « شهرين » .

الحروف المتحركة :

الحركــات : يجب أن ننتظر رسم حرف ج في

الحروف الرومانيـة لكـي نكـوّن فكـرة عن التغيرات الطفيفة في نظام الحركات: الفتحة تتحول الى إمالة a/e والكسرة تخفف : e/i والضمة تخفف : o/u. وتحكمها طبيعة الحروف الساكنة السابقة أو التاليـة . وهذا هو الموقف اليوم الى حد كبير في اللهجة المغربية .

وكانت الحركات في المقاطع المفتوحة ثابتة نسبياً حتى نهايـة القرن الخامس عشر . والحركـة الوحيـدة التي تعرضت للحذف هي الحركـة التيّ تحدث في المقطع الثاني من مقطعين مفتوحين داخليـين : (يتكلـم ويتخاصموا ودَخَلْـت) . وحركـة الفتحة هي الغالبة بين الحركات . والحركة الغالبة في الأسماء هي حركـة الفتحة الممالة مهما كانت طبيعة الحرف المتحرك المشدّد السابق . وهي أيضاً الحركة في المقطع الأول من أسماء الآلة من الوزن القديم مِفْعَل وحركة المقطع الأخير في صيغ التصغير . وفي الأفعال تظهر الفتحة في بداية فعل الأمر لضمير المتكلـم : أكْتب ! وفي بدايـة الأفعال المعتلة في صيغ الخُماسي والسُّداسي والسُّباعي والثُّماني

والمكوَّن من عشرة حروف . وبالقياس الى التلفظ في الأفعال الصحيحة تظهر هذه الخصيصة أيضاً في الأفعال المعتلة من كل الصيغ المشتقة (ما عدا الثُّلاثي أحياناً) وفي صيغتَي الرباعي على السواء . ويبدو أن كثيراً من الحركات (غير ممدودة ودائماً غير مشدَّدة) تفصل مجموعات الحروف الساكنة التي يصعب نطقها ، وهذه المجموعة قد تكون ابتدائية (وهي عملية معروفة في اللغة العربية الفصحى) مثل أفْرنطال بمعنى « أمامي » أو نهائية مثل : « كتبتِ ـ لكِ » يضاف الى هذا في الشعر أن حركة فاصلة تظهر بكثرة بعد كلمة تنتهي بالحروف cvc وتتلوها كلمة تبدأ بحرف ساكن . ويمكن أن تكون داخلية كما يحدث في حالة أسماء من نوع راف ر ر التي يكون فيها حرف ر إما ر أو ل أو ن أو م أو ب أو همزة مثل « عَقَل » للعَقْل ؛ و « عِجَل » للعِجْل ، و « شُغَل » للشُغْل ، و « رَطَب » للرَطْب ، و « حُمَر » للأحمر زُهَرْ لابن زُهر .

الحروف الممدودة : يميل تتالي حرفي المــد الألف والـواو ، في الأسماء إلى أن يصبحا أي وأو . وحرف الألف الممدودة إذا لم يدعمه حرف ساكن يميل الى أن يصبح من الحروف الحلقية . والمرحلة التي وصل اليها عن تقبل شديدهي الفتحةالممالة الممدوة، ويستخدم حرف الألف العربي بانتظام في « الخميادو » ليرسم حركة الحرف الروماني المتحركe. وفي مفردات غرناطة يحتفظ بهذا النطق الأخير لحركــة الألف الممدودة في المفردات اللغويـة المـدونة . وفي الـكلمات (من غير الأفعال) التي تعد من المفردات اللغوية الدارجة يصل النطق اللهوي الأقصى الى الياء الممدودة في « بِيـب » بمعنى باب إذ تكتب هذه الكلمة بالياء وليس بالألف .

حروف العلـة المـدغمة : لا تزال حروف العلــة المدغمة أي ai أوau باقية في صيغها الصحيحة فيما عدا بعض كلمات الوصل : كِفْ ، كَفْ = كَيْفَ ؛ لِسْ ، لَسْ = لَيْسَ .

الشكلــة : لا نعرف هذه الا فيما يتعلــق بالقرن

الخامس عشر ، نتيجة للتعليقات التي قام بها ب . دي ألكالا P . de Alcala وجمعها ودرسها أ . شتيكر A. Stiger. وتبين عدة مخطوطات غرناطية مكتوبة بالحروف العربية أن الحركات في المقاطع المفتوحة تصبح حروفاً ممدودة بفعل تشديد الشكلة .

ب ـ الصرف :

الفعل : لا يوجد ضمير المخاطبة للمؤنث . وفي الزمن التام نجد أن الكاسعة التي تدل على ضمير المخاطَبين هي : ُتمْ . وفي الفعل الناقص تكون ضمائر المتكلم على وزن نكتبُ ـ نَكْتَبُ . وفي ضميرَي المتكلم والمخاطب للفعل التام نجد أن الأفعال « المضعفة » في صيغة ضمير المتكلم تتبع التصريف القديم: « حَلَلْتُ أي فَتَحْتُ » . وفي حالة الفعل المتضمن حرف « ر ٣ » المرقق يكون الجمع الناقص على وزن « يمسوا » أي يخرجوا و « يلتقوا » أي يتقابلوا . وفي الصيغ المشتقة التي تشمل ضمير المخاطب تكون صيغة الفعل الناقص بالألف مثل

صيغة التام . وقد ثبت استخدام المبني للمجهول مع تغيير الحركة ، ولكن هذا لا يحدث إلا في صيغة المتكلم ، وأحياناً يحاكى بالسُّباعي . وبينما نجد أن معظم اللهجات التي استقرت فعلاً قد ابتدعت صيغة للمضارع الدال على الحاضر ، فإن العربية الأندلسية قد أبدعت مضارعاً عارضاً يقوم أيضاً بوظيفة صيغة شرط لم يتحقق (بعد جملة اعتراضية بلو) وصيغة تمنٍ ، ويتكون من الفعل الناقص مسبوقاً بكلمة كن (وفي مفردات غرناطة : كِنْ) التي يسكن آخرها والتي فيها يدغم حرف النون الأخير عادة بفعل الحرفين المزيدَين ت ، ي .

والتفعيلات الخاصة بالفعل الصحيح لصيغ الخُماسي والسُّداسي هي أتفَعَّل وأتفْاعَل ، وهي مشتقة على نحو فرعي من الفعلين المعديين يتفَعَّل ويتفاعَل . ولدينا على الأساس نفسه اتفعلل بالنسبة لصيغة المخاطب في الرُّباعي . ويلاحظ في هذه الصيغ أن حرف الزيادة ت لا يدغم في المخارج المطبقة من بين

الثنايا فحسب ، بل يدغم أيضاً في حروف الصفير : س ، ز ، ش . وفي الحرفين الاحتكاكيين : س ، ج . وتستخدم في الجملة الاسمية حروف وصل مختلفة للنفي مشتقة من الحروف القديمة لَيْس ، لَسْ ، لِس ، إس ، وإس المستعملة في مفردات غرناطة وأخيراً يبدو أن استعمال الكاسعة « شي » لتأكيد الاستفهام أو النفي غير معروف .

الأسماء : توجد في الواقع أداة للتنكير مثل « وحْد الفرس » أي « فرس ما » ، وواضح أن المثنى مهجور ، وهو لا يستعمل إلا في أجزاء الجسم التي توجد أزواجاً وفي الكلمات التي تعبر عن القياس . وصيغ الجموع أفْعُل وأفْعِلَة هي التي تستعمل عادة . أما صيغة مفاعيل فلا تستعمل إلا مع كل مفرد يكون الحرف المتحرك الثاني فيه ممدوداً . وتصغير الكلمات الثلاثية التي لا يكون فيها الحرف الأوسط أو الأخير ممدوداً يكون على وزن فُعَيِّل مثل « كُلَيِّب » أي الكلب الصغير (مذكر) ولكن يقال « كُلَيْبَة » للكلبة الصغيرة (مؤنث) . وفي حالة التركيب تؤول نهاية

الكلمة وهي الفتحة الى أت .

الأعداد : بالنسبة لرقم « ٢ » نجد كلمة « زوج » يتبعها الجمع . وتحتفظ الأعداد من رقم ١١ إلى ١٩ في حالتها المطلقة بالنهاية ـ أر .

الصفات : يلاحظ في اللهجة الغرناطية أن تصغير اسم على وزن فُعَيْعَل يصاغ للنعوت التي على وزنَي كبير وأحمر .

الضمائر : ضمير المخاطب المفرد يكــون بصيغ أنت ، أتًّ ، أتْ ، وضمير الغائب له صيغ مختصرة هي : هُوْ ، هِيْ ، هُمْ ؛ وهي تؤدي في الغالــب وظيفة حروف الوصل في الجملة الاسمية . ومن جهة أخرى توجد الصيغ الممدودة :هُوَتْ ، هِيَتْ ، هُمَتْ (صيغ للتوكيـد) . وبالنسبة لضمير المتكلمين هناك كثير من الصيغ المختلفة : نُحَنْ ، نِحِنْ ، نِحِنَتْ في مفردات بلنسيـة ، وأحَنْ ، حَنْ ، حِنَتْ في مفردات غرناطة . والضمائر المنعكسة على صيغة أنا أنَّيِي « أنا نفسي » وربما تؤدى كلمة نفْسي . ونجد آثاراً

للكاسعة ـ أه في ضمير الغائبة (بعد حرف ساكن) .

الأسماء الموصولة : أكثرها استعمالاً هو « الـذي » وهو مبني . ونجده أحيـاناً يظهر في صورة « أدِّي » ابتداء من أزجال ابن قزمان ، وهو يرد في مفردات غرناطة ، وبصيغة غامضة هي ألليِّ ، ويحدث أن نجد بين اسم نكرة وبين صفة أو جملة (اسميـة وفعليـة) تصف هذا الاسم أداة وصل مبنية : « أن » وقد يكون لهذا ارتباط بالتنوين القديم في استعمال متطور جدّاً : « لحية ـ أن بيظه » أي : لحيـة بيضاء ؛ و « عينان ـ أن سود » أي : عينان سوداوان ؛ و « حواجب ـ أن رقاق » أي حواجب رقيقة ؛ و « كِلْمَتْ ـ أن فيها قاف » أي كلمة فيها حرف قاف ؛ و « قِط ـ أن مَذَا ـ لِ » أي قطة ضاعت مني ؛ ؛ و « وقت ـ أن تُذَكر » أي في اللحظة التي يُذكر فيها اسمك .

حـ ـ حروف الجر : تستخدم كلمة مَتَاع / مِتَاع حرف جر يدخل ، في الاعراب ، على المفعول المعرَّف (اسماً أو ضميراً)عندما تبدو الاضافة قبيحة . وتوجد

الصيغة المختصرة (مَتَى / مِتِى) أي متى بين اسمين . ويستعمل حرف الجر « مع » للتعبير عن معنى يطابق معنى الفعل « يملك » . ويصبح هذا الحرف قبل الكاسعات الشخصيـة التي تبدأ بحرف متحرك ؛ ماع ـ : « ماعَ قِطَاع » أي عنده مال . أما حرف الجر « ذ » الـذي يصادفه المـرء غير قليل في النصوص الطليطلية فهو مجرد حرف منقول عن حرف الجرde في اللغة الرومانية .

كلمات وصل نحوية : يجب ملاحظة ما يأتي : « أشْحالْ ؟ » أي كم ؟ ؛ و « بَحَالْ » أي مثل ؛ و « ذابَ » أي الآن ؛ و « حُرْمَه ف أش » أي ما السبب ؟ و « مَكّاي » أي على أية حال ، أو على الأقل ؛ و « يَدّا » بمعنى أيضاً أو كذلك ؛ و « نِعْمه » و « سَرَف » و « أكْداس » ، أي جدّاً أو كثيراً ؛ و « شُـوَيّ » أي قليلاً ؛ و « فَـوَات » أي متأخراً ؛ و « إكّان » أي إذا (للدلالة على إن كان) ويَاعَلاَ . . . أي إن شاء الله . . . (أتِنَمْ) .

د ـ مفردات :

نوجه النظر الـى ما يأتي فحسب : « دُقَام » أي فَم ؛ و« أجّ » أي وجه ؛ والجمع « قِطَاع » أي نقود فضية ؛ و« وِلْد » أي والد ؛ « ومُقَارِب » أي فقير أو سيء ؛ و« أكْحَل » أي أسود .

ج. س. كولان

. G . S . Colin

الفهرس

كتب دائرة المعارف الإسلامية

١ - أفغانستان
٢ - الأندلس
٣ - البدو
٤ - علم التاريخ
٥ - أصول الفقه الاسلامي
٦ - السبرج في العمارة الاسلامية الحربية
٧ - تفسير القرآن الكريم
نشأته . تدرجه . تطوره

٨ - الجغرافية عند المسلمين
٩ - أفلاطون
تصوره للإله والوجود
ونظرة المسلمين إلى فلسفته
١٠ - الجريدة والصحافة عند المسلمين
١١ - ألف ليلة وليلة.

ويتبع ..